بحث عالج فيه المؤلف موضوعاً قلّما

تعرض له كاتب على خطره، هو

إيضاح أولوية مفهوم الثقة بالله تعالى

وتفنيد مفهوم الثقة بالنفس السائد،

وذلك على ضوء كلام الله عز وجل

وأخبار محمد وآله الطاهرينعليهم السلام

سبيل النجاة

في الثقة بالله لا بالذات

تأليف

الشيخ يحيى رسلان العاملي


شبكة الفكر
alfeker.net

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من لبس رداء القدس

وأشرقت منه أنوار الهداية

فأضاءت طريق العابدين

ووسمت جباههم ذل الخاشعين

بين يدي رب العالمين

الكوكب الدري في سماء الأنجم الزاهرة

والأئمة الطاهرين الإمام المهدي عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

«أحمَدُهُ استتماماً لنعمته، واستسلاماً لعزته، واستعصاماً من معصيته، وأستعينه فاقةً إلى كفايته؛ إنَّه لا يَضلُّ من هداه، ولا يَئِلُ من عاداه، ولا يفتقر من كفاه؛ فإنَّه أرجحُ ما وُزِنَ وأفضَلُ ما خُزِنَ. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً مُمتَحَناً إخلاصُها، مُعتَقَداً مُصَاصُها[1]، نتمسك بها أبداً ما أبقانا، ونَدَّخِرُها لأهاويلِ ما يلقانا؛ فإنها عزيمةُ الإيمانِ، وفاتحةُ الإحسانِ، ومرضاةُ الرحمنِ، ومَدحَرَةُ الشيطانِ. وأشهد أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، أرسله بالدّينِ المشهورِ، والعِلمِ المأثورِ، والكتابِ المسطورِ، والنورِ الساطعِ، والضياءِ اللّامِعِ، والأمرِ الصادعِ؛ إزاحةً للشُّبُهاتِ

---

١ خالصها

واحتجاجاً بالبيّناتِ، وتحذيراً بالآياتِ، وتخويفاً بالمَثُلاتِ[١]»[٢]؛ «رب صل على محمد وآله صلاة زاكية لا تكون صلاة أزكى منها، وصل عليه صلاة نامية لا تكون صلاة أنمى منها، وصل عليه صلاة راضية لا تكون صلاة فوقها، رب صل على محمد وآله صلاة ترضيه وتزيد على رضاه»[٣]

---

١ العقوبات

٢ نهج البلاغة: ج ١ ص ٢٧.

٣ الصحيفة السجادية الجامعة: ص ٣٢١.

بسم الله الرحمن الرحيم

الثقة بالله

الثقة

الثقة حالة نفسية توجب الاطمئنان وسكون النفس وارتفاع القلق والتوتر منها بل توجب حالة من الاستقرار والراحة النفسية بحيث يملك الإنسان تصرفاته وكلامه ويؤثر في الاحداث دون أن تؤثر فيه.

فمن يثق أن بيته محصن من السرقة يطمئن ويستطيع أن ينام لارتفاع القلق بالاطمئنان وهذه الثقة لها مراتب متعددة تشتد وتضعف وهي توجب الاتكال على ما تثق به.

سبب الثقة

إن حصول الثقة في نفس الإنسان له سبب وهو المعرفة بأن هذا الشيء فيه ما يقتضي حصول المطلوب، فأنت لا تثق بالطبيب وتسمح له بمداواتك إلا إذا علمت بمهارته في تشخيص المرض ووصف الدواء المناسب، ومن هنا نعرف أن الثقة بشيء فرع المعرفة بوجود مقتضي حصول المطلوب فيه.

وهذه المعرفة لابد من وجودها في قلب الإنسان حتى تؤثر في جوارحه، فمجرد وجود العلم في ذهن الإنسان لا يكفي لتأثيره في حركته، فغالب الناس تعلم بوجود جهنم ودخول العاصين النار ومع ذلك تراهم يعصون الله تعالى، وسبب ذلك عدم وجود الخوف في نفوسهم، لعدم استقرار ذلك العلم في قلوبهم وقد وصفهم الله تعالى في كتابه حيث قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[١] أي

---

١ الجمعة: ٥.

يحمل كتبا فهل يستفيد الحمار من الكتاب المحمَّل على ظهره، كذلك هذا الإنسان الذي حصَّل العلم في ذهنه دون أن يسكن قلبه.

فالعلم بوجود جهنم إذا حل في القلب أورث خوفاً، فما دمت لا ترى في نفسك خوفاً يمنعك عن معصية الله فاعلم أن علمك بالنار وغضب الجبار لا يتعدى ذهنك[١].

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام «من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات»[٢] فالخوف مثلاً لا يوجد في قلوب تسكنها الشهوات، بل إنَّ هذه القلوب لا تكون مستودعاً للمعرفة بوجود الله تعالى والجنة والنار ففي الحديث القدسي " فَإِنَّ الْقُلُوبَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا عُقُولُهَا مَحْجُوبَةٌ عَنِّي "[٣].

---

١ وللخائف علامات فإنه لسيطرة حالة الخوف عليه ينخطف لونه ويضطرب قلبه ويبتعد عمّا يخاف منه، ولا يفكر في لذة الشهوة.

٢ نهج البلاغة: ج ٤ ص ٧.

٣ الجواهر السنية: ص ٨٩.

الثقة بالنفس

قد شاع في أيامنا مفهوم الثقة بالنفس وأصبح من الأسس التي يبتني عليها تكوين الشخصية النفسية للفرد، ومما ينبغي أن يعلم أنَّ هذه الثقة بالنفس إما أن تكون ثقة بذات النفس أو بما يعرض عليها من الصفات، والتقدير الأول منتفٍ، إذ الانسان عند ولادته لا يتحلى بشيءٍ من الصفات التي تدعو العاقل الى الثقة به، وهو على هذه الحال من العجز والضعف والجهل، أما على التقدير الثاني والمتعين فإنها ثقة بما لا يلبث أن يفارق، فإنَّ هذه الصفات العارضة مثل القوة والعلم والعزة معرَّضة للزوال كلها أو بعضها في سن الشباب، أما في سن الشيخوخة فلا يكاد يبقى منها شيء.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾[١].

وفي تفسير القمي: (وقوله ﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون﴾ فإنه رد على الزنادقة الذين يبطلون التوحيد ويقولون أن الرجل إذا نكح المرأة وصارت النطفة في رحمها تلقته الاشكال من الغذاء ودار عليه

---

١ يس: ٦٨.

الفلك ومر عليه الليل والنهار فيولد الانسان بالطبائع من الغذاء ومرور الليل والنهار، فنقض الله عليهم قولهم في حرف واحد فقال: ﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون﴾ قال: لو كان هذا كما يقولون لكان ينبغي ان يزيد الانسان ابداً ما دامت الأشكال قائمة والليل والنهار قائمين والفلك يدور، فكيف صار يرجع إلى النقصان كلما ازداد في الكبر إلى حد الطفولية ونقصان السمع والبصر والقوة والعلم والمنطق حتى ينتكس ولكن ذلك من خلق العزيز العليم وتقديره)[١].

ومن هنا نعلم أن النفس متمحضة بالافتقار، وبهذا المعنى يفسر العلماء حديث: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[٢]، فمن عرف نفسه بالضعف والجهل والعجز علم أن صفات الكمال التي تتصف بها نفسه من الله عز وجل.

---

١ تفسير القمي: ج٢ ص٢١٧.

٢ بحار الأنوار: ج٢ ص٣٢.

ثم إن سلمنا بأنَّ صفات النفس لازمة غير مفارقة فهل هذا يعني أنَّها من الممكن أن تكون محل ثقة المرء؟ إذ كيف تثق بمن كانت حاله هكذا؟!

للجواب على هذا التساؤل لا بد من النظر في صفات النفس الإنسانية بشكل عام، ولن نجد أعلم من الله عز وجل بها، والله تعالى يقول في القرآن العظيم: ﴿إنَّ النفسَ لأمارةٌ بالسُّوءِ إلا ما رحم ربّي﴾[١] فالله تعالى ليعرفنا شدة أمر النفس بالسوء استعمل صيغة المبالغة "فعّال"، وأدخل عليها لام التوكيد بعد أن ابتدأ الكلام بـ "إنَّ" التوكيدية، إضافة الى نفس دلالة مادة الأمر على المطلوب حيث قال تعالى "أمّارة" ولم يقل "ميالة"، وفي اجتماع هذه المؤكدات كلّها دلالة بليغة على أن النفس إنما تجرك الى السوء اذا وثقت بها، وذلك لأنَّ النفس تحثُّ على تحصيل شهواتها وأهوائها بالكيف والكم الذي يرضيها، وهي لا يشبعها شيء منهما كما

---

١ يوسف: ٥٣.

قال الامام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: « مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله»[١].

فالنفس بمقتضى شهواتها وأهوائها تتجرأ على معصية الله تعالى وتتبع الهوى وتسعى في تحصيل الشهوات، وذلك لا يكون إلا سوءاً، فصاحب الشهوة على اختلاف أنواعها يحاول تحصيلها بأي وسيلة كانت، حتى لو استلزم تحصيلها أذية الاخرين وظلمهم، وأكبر مثال على ذلك محبو الرئاسة، حيث سعوا لتحصيلها حتى لو أدّى ذلك الى ظلم الأخرين، بل قتل الأبرياء.

ويصاب المنقاد لهذه الشهوات بعمى البصيرة، فيرى فعله حسناً كما نراه في الدول الاستعمارية، فالرئيس الذي يمكّنها من احتلال بلد لأخذ خيراته ولو بقتل الناس واضلالهم هو عند شعبه بطل قومي يقتدى به.

١ الكافي: ج٢ ص١٣٦.

كل ذلك بسبب حب النفس للدنيا ومن هنا نفهم قول الإمام الصادق عليه السلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[1]، ويوضح ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «...فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول (إن الجنة حفت بالمكاره وإن النار حفت بالشهوات) واعلموا أنه ما من طاعة لله في شيء إلا يأتي في كره وما من معصية الله شيء إلا يأتي في شهوة، فرحم الله رجلاً نزع عن شهوته وقمع هوى نفسه، فإن هذه النفس أبعد شيء منزعاً وإنها لا تزال تنزع الى معصية في هوى»[2] فإن هذا النص يوضح أن الطاعة فيها مشقة والمعصية فيها حلاوة ولذة تجذب النفس اليها، ولهذا تنزع بالإنسان وتشده الى معصية الله تعالى، فلا بد من مجاهدتها ومحاسبتها حتى تستقيم، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إنما هي نفسي أُرَوّضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر»[3].

---

١ الخصال: ص٢٥.

٢ نهج البلاغة: ج٢ ص٩٠.

٣ نهج البلاغة: ج٣ ص٧١.

والنتيجة

لا يمكن أن يثق الانسان بنفسه الضعيفة والأمّارة بالسوء التي تقوده إلى معصية الله جل جلاله.

هذا المعنى يظهر جلياً في دعاء الامام زين العابدين عليه السلام: « إلهي إليك أشكو نفساً بالسوء أمّارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك اهون هالك، إن مسها الشر تجزع، وإن مسها الخير تمنع، ميالة الى اللعب واللهو، مملوءة بالغفلة والسهو، تسرع بي الى الحوبة، وتسوفني التوبة»[١].

فإن كانت النفس هذه حالها، فهي تجرك إلى النار وغضب الجبار والظلم والتعدي على الآخرين، فهذه صفات العدو غير المؤتمن لا الصديق الموثوق، ومن هنا كان قول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: «إن اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»[٢].

١ الصحيفة السجادية الجامعة: ص٤٠٣.

٢ بحار الأنوار: ج٦٧ ص٣٦.

ومن أسباب كونها أعدى أعدائك

أولاً: أنَّ العدو الخارجي مهما بلغ من الخطر لن يؤثر عليك في كل حيثياتك الدينية والدنيوية، أما النفس فلها التأثير السلبي الأعظم في ذلك كله.

ثانياً: أنَّ العدو الخارجي يكون غالباً ظاهر العداوة مبغوضاً فلا يغتر المرء بخدعه، أما النفس فهي محبوبة المرء الأولى، فتزيّن القبيح وتبعد عن الرشاد، من غير أن يلتفت الإنسان أصلاً الى مكرها وخداعها، إذ عين الرضا عن كل عيب كليلة.

وثالثاً: أنَّ كل من يؤذيك تأخذ من حسناته أو يأخذ من سيئاتك، بخلاف النفس فإنها تورثك بطاعتها السيئات، وتمحق الحسنات، فأي العدو أعدى؟!

ولهذا أيضا قال الامام الصادق عليه السلام «اجعل نفسك عدواً تجاهده وعارية تردها»[1].

١ تحف العقول: ص٣٠٤.

وفي الدعاء المروي عن الامام علي عليه السلام «يا مولاي أنت العظيم وأنا الحقير وهل يرحم الحقير إلا العظيم، مولاي يا مولاي أنت القوي وأنا الضعيف وهل يرحم الضعيف إلا القوي، مولاي يا مولاي أنت الغني وأنا الفقير وهل يرحم الفقير إلا الغني، مولاي يا مولاي أنت المعطي وأنا السائل وهل يرحم السائل إلا المعطي، مولاي يا مولاي أنت الحي وأنا الميت وهل يرحم الميت إلا الحي، مولاي يا مولاي أنت الباقي وأنا الفاني وهل يرحم الفاني إلا الباقي .... مولاي يا مولاي أنت الرازق وأنا المرزوق وهل يرحم المرزوق إلا الرازق...»[١].

فإذا كانت هذه صفاتها فكيف تثق بها وتتوكل عليها في الأمور، فهي من جهةٍ كلّها افتقار، والعاقل لا يثق بالمفتقر الى الشيء أن يعينه عليه، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ومن جهة أخرى هي لا تجرك إلا الى الفساد، فمع ضعفها تفعل هذا فكيف إذا كانت قوية؟ فكيف تثق بالضعيف والفاسد؟! وهل تثق بالعدو؟!

---

١ المزار (ابن المشهدي): ص ١٧٤.

ثم إنَّ هذه الثقة تمكّن مخالب الشيطان من عنقك، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إياك والثقة بنفسك فإنَّ ذلك من أكبر مصائد الشيطان»[١]، فاذا وثقت بنفسك وهي محبة للدنيا كما مرّ، فمن خلال هذا الحب والهوى يتصيدها إبليس ويبرر لها كل أفعالها فيجرّانك الى غضب الجبار.

ومن هنا نرى أننا نبرر لأنفسنا بعض الأفعال، وحينما ينتهي الفعل نصاب بالندم، فكلمة "مصائد إبليس" كلمة مهمة جداً، أي شيء مخفي لا تراه الفريسة، فالإنسان لثقته بنفسه يندم على بعض الأفعال، مثلاً يذهب الى مواطن المعصية لأنه يثق بنفسه ويراها قويةً، وإذا بإبليس يستدرجه قليلاً قليلاً فلا يستطيع أن يرجع بعد أن يدخل في مقدمات الحرام، فمثلاً يقول بعض الناس: أنا قوي وواثق بنفسي فيذهب مع فتاة أجنبية، وبعد قليل تقوى شهوته فيقع في الحرام.

وبعضهم يقول أنا واثق بأنَّ نفسي لا يغرها المال و إذا به حينما يعرض عليه المال وتسوِّل له نفسه شراء المساكن والسيارات وارتياد الأماكن

١ ميزان الحكمة: ج ٤ ص ٣٦٦٥، عن غرر الحكم.

الفخمة، نراه يقع في الشباك، وأوضح مثال على ذلك شبكات المخابرات، فانهم بالمال والنساء يستخدمون بعض الأشخاص ضدَّ أوطانهم و أديانهم و مجتمعاتهم.

بل إنك تجد بعض من يدعي الثقة بنفسه، والقوة على ترك الباطل يؤذي أهله ويأخذ حقهم من أجل حبّه للدنيا، فغالب الناس عندهم ثقة بأنفسهم ومع ذلك أو لذلك نراهم يعتدون على غيرهم ويظلمون الناس.

وفي الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ نفسك لخدوعٌ إن تثق بها يقتدك الشيطان الى ارتكاب المحارم»[1].

فهذه الرواية تظهر لك المقصود من الرواية السابقة، وتبين لك حال نفسك في تبرير المعاصي والأخطاء، فإذا أرادت النفس شيئاً تراها تأتي بأسبابٍ بعدد رمال الارض لتحصيله، ونرى ذلك في أنفسنا، فإنها تبرر أخطاءها، بل تجعلها تبدو كعين الصواب.

---

١ ميزان الحكمة: ج ٤ ص ٣٣٢٥، عن غرر الحكم.

فانظر الى أكثر الاشخاص واسألهم عن بعض أخطائهم تراهم فلاسفة في تبرير هذه الأخطاء، وهم مقتنعون بذلك غالباً، فهذا يكشف مدى خداع النفس، وإبليس يستغل هذا العيب الصادر عن النفس فيقتادها الى المعاصي مثل البهيمة يجرها الانسان باللجام الى حيث يشاء. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «سلس القيادة للشهوة»[1] فالذي يخفي مصيدة إبليس هي النفس، ولولاها لما قدر إبليس أن يفعل شيئاً.

ولذلك يؤكد الأمير عليه السلام في خطبته بقوله: «وإياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين»[2] فهذه الرواية ناظرة الى ما يعرض على النفس من صفات، لأن النفس بما هي هي كلها افتقار، نعم تعرض عليها بعض الصفات الحميدة، ولكنها نِعمٌ من الله تعالى، وعلى الانسان أن يشكر الله تعالى عليها، لأنها منه واقعاً، وإن أعجبته صفاته فهو

---

١ تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٢٠٦.

٢ نهج البلاغة: ج٣ ص١٠٨.

يراها من نفسه، ويصاب بالغرور وحب الإطراء على ما عنده من صفات أكرمه الله بها، ورأى لنفسه شأناً.

أما إذا رآها نِعمٌ من الله تعالى انتابته حالةٌ من الشكر لله تعالى، وأحد أنحاء الشكر لله تعالى هو التواضع، لأنَّه يراها عارية عنده، فلا يغتر بها بل يسعى لاستغلالها في طاعة الله تعالى.

الاتكال على النفس جهل

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سمعت أم سلمة النبي صلى الله عليه وآله يقول في دعائه: اللهم ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً »[1].

وفي مصباح المتهجد: «اللهم فصل على محمد وآله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً ولا إلى أحد من خلقك فإنك إن وكلتني إليها تباعدني من الخير وتقربني من الشر، أي رب لا أثق إلا برحمتك فصل على محمد

١ بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٣٨٤

وآله الطيبين واجعل لي عندك عهدا تؤديه إلى يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد»[١].

فكيف تثق بشيء تدعو الله تعالى أن لا يكلك اليه!

فالنفس تارةً تأمرك مباشرةً بالمعصية وأخرى تخدعك للوصول اليها، ففي الحديث القدسي: «يا موسى لو وكلتك الى نفسك لتنظر لها اذن لغلب عليك حب الدنيا وزهرتها»[٢]،

فهي أولاً توقعك في المعصية ولو بالخديعة، فتجعل بذلك حب الدنيا يغلب على قلبك فيصبح حاكماً، واستيفاء الكلام في هذا الأمر يحتاج الى أبحاث اخرى.

هذا فضلاً عن ضعفها المانع عن العبد عليها وثقته بها، ففي الدعاء للإمام زين العابدين عليه السلام : «اللهم لا طاقة لي بالجهد، ولا صبر لي على البلاء، ولا قوة لي على الفقر، فلا تحظر علي رزقي ولا تكلني الى خلقك، بل

---

١ مصباح المتهجد: ص٢١٤.

٢ الكافي: ج٢ ص١٣٥.

تفرد بحاجتي وتولَّ كفايتي وأنظر الي في جميع أموري، فإنَّك إن وكلتني الى نفسي عجزت عنها ولم أقم ما فيه مصلحتها، وإن وكلتني الى خلقك تجهموني، وإن الجأتني الى قرابتي حرموني، و إن أعطوا أعطوا قليلاً نكداً، ومنوا علي طويلاً وذموا كثيراً، فبفضلك اللهم فأغنني، وبعظمتك فانعشني وبسعتك فأبسط يدي وبما عندك فاكفني»[1].

١ الصحيفة السجادية الجامعة: ص ١٢٠.

التوكل

التوكل والثقة

جاء في التفاسير أنَّ الثقة بالله تعالى هي عين التوكل على الله، ففي التبيان للشيخ الطوسي:

(والتوكل هو الثقة بالله في كل أمر يحتاج إليه، تقول: وكلت الامر إلى فلان، إذا جعلت إليه القيام به، ومنه الوكيل: القائم بالأمر لغيره)[١].

وفي تفسير القرطبي:(وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرضون على السرية. وقال غيره: وهذا قول عامة الفقهاء، وأن التوكل على الله هو الثقة بالله والايقان بأن قضاءه ماض، واتّباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في السعي فيما لابد منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدو وإعداد الأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة. وإلى هذا ذهب محققو الصوفية، لكنه لا يستحق اسم التوكل عندهم مع

---

١ التبيان: ج٥ ص٧٧.

الطمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب، فإنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى، والكل منه وبمشيئته، ومتى وقع من المتوكل ركون إلى تلك الأسباب فقد انسلخ عن ذلك الاسم.

ثم المتوكلون على حالين: الأول -حال المتمكن في التوكل فلا يلتفت إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه، ولا يتعاطاه إلا بحكم الأمر....)[١].

والصحيح أنَّ الثقة بالله تعالى تستلزم التوكل، لأنَّ الثقة بالله تعالى حالة قلبية نفسية لا توجد إلا في قلب اطمئن بأنه لا قادر إلا الله وحده - فلا ثقة بغيره لأن غيره ضعيف ليس له الا الله تعالى، والضعيف لا يُتوكل عليه-، فالثقة بالله اذاً من سنخ الإدراك الذي أذعن به العقل وأصبح حقيقةً في القلب تُشعِل في العقل والقلب معاً توكلاً في جميع الأمور على القادر الصمد القيوم، وهذا التوكل من سنخ الفعل العقلي والجانحي، *وأما

١ الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): ج ٤ ص ١٨٩.

كون العقل محض مدرك والقلب فقط محل للمشاعر فهو محل نقد بل نقض ليس المقام محله*.

والتوكل على الله تعالى ليس كلمةً يُتَلفَّظُ بها، بل هو حقيقةٌ وجدانيةٌ لا توجد إلا عند من شعر بالضعف وأقر به وحَصَر القدرة بالله ووثق به جلّت قدرته.

فمن يرى لنفسه القدرة على حمل شيءٍ لا يطلب من غيره المساعدة والإعانة، ولو طلب لما كان طلبه حثيثاً، لأنه يشعر بقدرته على تأدية غرضه بنفسه، وفي بعض الأحيان يكون طلباً شكلياً لا واقع له في النفس، وغالباً لا يلتفت الشاعر بقوّته الى طلب الإستعانة، وهذا هو حال كل من لم يعرف نفسه بحقيقة الضعف والعجز، فإنه لن يتمكن من التوكل على الله تعالى وطلب العون منه عز وجل، هذا والله تعالى هو من يمدنا بالقدرة في آنات حياتنا، إلا أننا اعتدنا على عطاء الله فصرنا ننسب قدرة الله التي يمدنا بها لأنفسنا دون أن نشعر، ولو شعرنا أنها من الله لطلبناها منه لكل

شيء ولاستعننا بالله على الصغير والكبير ولشكرناه عز وجل من كل قلبنا على كل شيء حتى شربة الماء وتنفس الهواء.

ومن اشتبه عليه الحال فليعتبر بحاله عند عجزه الظاهر، كما لو انقطعت به السبل، فكيف يكون توكله ودعاؤه وتضرعه إلى الله تعالى، فهذه الحال التي يغلب فيها الشعور بالضعف يجب أن تكون حالنا في كل حياتنا وليس عند انقطاع الأسباب فقط.

ولا يتحقق التوكل في النفس إلا بثلاثة أمور: الشعور بالعجز وحصر القدرة بالله تعالى والثقة به وحده جل وعلا.

فأي انسان إذاً إذا وثق بخمسة أشخاص لمساعدته في سداد دينه لثقته بوجود مال معهم فإنه يختار من يتوكل عليه في سداد دينه منهم، ولا تستلزم الثقة بأحدهم التوكل عليه في ذلك، لوجود ثقة بغيره، فلا بد من أن يرجِّح أحدهم مع وجود الثقة بالجميع، فالثقة لا تستلزم حصر التوكل على واحد بعينه إلا مع وحدة الموثوق به.

ولهذا لا يتوكل على الله وحده من دون ترجيح أو التفات إلى غيره الا من عرف بقلبه أن الله تعالى وحده القادر واقعاً على كل شيء، فلا بد أن تنحصر ثقته بالله وحده لمعرفته بأنَّه وحده القادر.

فمن هنا ظهر أن المعرفة القلبية تستلزم الثقة، والثقة تستلزم التوكل، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «من وثق بالله توكل عليه»[١] وقوله عليه السلام: «من سكن قلبه العلم بالله سكنه الغنى عن خلق الله»[٢] وقال عليه السلام: «حسن توكل العبد على الله على قدر ثقته به»[٣]

سبب تفرع التوكل عن الثقة

إنَّ الثقة فرع المعرفة بوجود شيء يقتضيها كما مرّ، فالإنسان حينما يريد أن يحصّل مطلوباً فهذا التحصيل يحتاج الى حول وقوة، وهما بالله وحده، فأنت حينما تقول "لا حول ولا قوة الا بالله" فأنت تقر بحصر الحول والقوة

---

١ عيون الحكم والمواعظ: ص ٤٣٢.

٢ ميزان الحكمة: ج٣ ص١٨٨٧ عن غرر الحكم.

٣ ميزان الحكمة: ج٤ ص٣٦٥٩ عن غرر الحكم.

بالله وحده، لان "لا" هنا نافية للجنس، وعليه فأنت تقر بنفي جنس الحول والقوة عن غير الله تعالى وحصرها به وحده، فالاتكال على النفس الفاقدة للحول والقوة فعلُ جاهلٍ!

إشكال وحل

كيف يُسلّم العبد أنَّ الحول والقوة بالله تعالى وحده ونفسه فاقدة لها ثم يتكل عليها؟!

والجواب

إنَّ هناك قوة ظاهرية وقوة واقعية، فمثلا الأداة الكهربائية التي تقطع الاشياء ظاهرا يرى الانسان أن هذه القوة لها، ولكن من يعرف الحقيقة يدرك أنَّ القوة تكمن في الكهرباء إذ هي لا تقطع لولا قوة الكهرباء المشغلة لها.

وهكذا الإنسان، عنده قوة ظاهرية تجعله يتكل عليها، ولكن من يعرف الحقيقة يرى أنَّ الحول والقوة لله تعالى وحده، والنفس فاقدة لهما ولا تحصل عليهما الا من الله تعالى في كل آن وفي كل لحظة، بل الإنسان

لا يستطيع أن يحفظ حياته لحظة واحدة، لأنَّ روحه يمكن أن تُسلب منه في أيّ لحظةٍ، فمن لا يستطيع أن يحفظ نفسه كيف يستطيع أن يحفظ صفاتها، فحفظ الذات أسهل من حفظ عوارضها.

عدم الاتكال على النفس

يجب عدم الاتكال على النفس ولو تحلت بقوة ظاهرية، فقد قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً*إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[١] فالآية واضحة الدلالة بأنه لا يُطلق قول (سأفعل ذلك غدا) الا أن يُقيَّد بـ (إن شاء الله)، والآية هنا ليست في صدد بيان أدب لفظي فقط، بل هي في مقام بيان منهج اعتقاد وتأديب عملي.

ثمَّ إنَّ المرء لو لم يكن يشعر بقوة عنده حين القول لا يتلفظ بذلك مطلقاً -الا أن يقيده بمشيئة الله-، لأنَّ العاقل لا يعبّر عما لا يقدر على فعله، وإنَّ الله تعالى نهاه عن ذلك القول بغير تعليق على المشيئة، لأن هذه القدرة الظاهرية في وجودها واستمرارها مرتبطة بمشيئة الله تعالى، وكذلك تأثير هذه القدرة مشروط بإرادته عز وجل.

---

١ الكهف: ٢٣-٢٤.

المفارقة التي يعيشها الانسان بين المبدأ والحياة

إذا قرأنا الآيات والروايات التي توضح أن الرزق بيد الله تعالى، كقوله تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[١]، وقول الامام الصادق عليه السلام «علمت أن رزقي لا يأكله غيري فوثقت به»[٢]، وقول أمير المؤمنين عليه السلام «فإنّك لستَ بسابقٍ أجَلَك، ولا مرزوق ما ليس لك»[٣]، وكثير غيرها نجده في كتب الحديث وكذلك في قصص الأنبياء و الأولياء عليهم السلام حيث نجد كيف كان الله تعالى يخرجهم من الأزمات بتدبير خفي ويرزقهم من غير الطرق المحتسبة، عندها تتقوى العقيدة بالله تعالى واليقين بتدبيره، وتستريح النفوس وتهدأ ويذهب عنها خوف عدم حصولها على الرزق، وتذهب حالة الإضطراب والقلق الذين ينشآن من خوف عدم تحصيل الرزق.

---

١ الذاريات: ٢٢.

٢ مستدرك الوسائل: ج١٢ ص١٧٢.

٣ نهج البلاغة: ج٣ ص١٣٣.

لكنَّ الإنسان يعيش الصراع حينما ينزل الى المجتمع ويراه متكلاً على الأسباب، فمن لا يجد عملاً منهم تراه يعيش حالة من القلق والاضطراب النفسي لأنَّه يفكر بسداد أجرة البيت أو كيف يأتي بالطعام لأولاده أو بأقساط المدرسة، فيعيش حالة من الكآبة التي تجعل حياته جحيماً غالباً. والذي يساعد على اشتداد هذه الحالة أنَّ الانسان حينما يولد في المجتمع يعيش معهم وهو يشعر أنَّ الأسباب هي الموصلة لتحصيل المال، فيرى مثلاً: أنَّه إذا عمل أبوه يأكل وإن لم يعمل أبوه يعش في حالة من ضيق ذات اليد، ويرى الحالة النفسية لأهله وهم يمرون بحالة من القلق والاضطراب النفسي.

ولهذه الامور تترسخ في نفسه حالة من الاطمئنان للأسباب، تجعله يتعلق نفسياً بالأسباب، والعقل حينئذ يُشل، لأنَّ النفس هي أهم مؤثّر في حركة العقل، فالخائف يكون تفكيره في حالة من الضياع غالباً، ومن هنا نعرف لماذا يتبدل تفكيرنا من حالة نفسية الى حالة أخرى، فالإنسان إذا استطاع أن يجلب لنفسه الإطمئنان في غالب الظروف يستطيع أن يخرج أكثر

الاحيان بنتائج صحيحة، فلا تتأثر بصيرته، فيرى بنور الله تعالى وهذه حالة الانبياء صلوات الله عليهم، لأنَّ الطمأنينة الحقيقية لا تكون إلاّ بذكر الله تعالى ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[١].

والصواب في المقام

أنَّ هنالك أسباباً ظاهرية وأسباباً واقعية وحقيقية كما تقدّم، فمن ينظر الى آلة التقطيع الكهربائية يرى أنَّها تقطع الخضار، فهذا هو النظر الظاهري، ولكن الحقيقة أن الكهرباء هي القوة المحركة لها، وأما هي فلا قوة لها أبداً، والأسباب الخارجية لها قوة ظاهرية والقوة الحقيقية لله تعالى فهو يجعل فيها القوة ساعة يشاء وينزعها منها ساعة يشاء.

والناس توكلت حقيقةً على الأسباب الظاهرية لما تقدم، وتوكلت على الله تعالى لفظاً فأوكلها الله تعالى إليها، أما الأولياء فقد توكلوا على مسبب الأسباب فتوكل الله تعالى بهم.

---

١ الرعد: ٢٨.

حل المفارقة في نظر البعض:

يجمع بعض الناس بين مبدأ التوكل على الله تعالى وبين ما ترسّخ في نفسه من العمل بالأسباب والإتكال عليها، بأن يقول في نفسه: أنا متكل على مسبب الأسباب ولكن الله تعالى يأمرنا بالأخذ بالأسباب، وقد ورد في الحديث المشهور: «أبى الله أن يجري الأشياء إلا بالأسباب»[١]، فأنا متكل على مسبب الأسباب وآخذٌ بالأسباب لا متكل عليها، ليريح نفسه.

والحقيقة

أن هذا الإنسان الذي يدعي هذه الدعوى ويريح نفسه بها يظنُّ أنَّ مجرد وجود هذه الفكرة في الذهن كافٍ لحل المشكلة والهروب من المفارقة، لكنَّه أخطأ التقدير وابتعد عن الواقع، لأنَّ هذا الأمر حالة قلبية نفسية لا ذهنية فكرية، فليس بمجرد وجود الفكرة يحل الإشكال، فالتصديق الذهني بالفكرة شيءٌ والإعتقاد القلبي شيءٌ آخر، ويفتضح هذا الأمر حينما يفقد هذا الإنسان الأسباب الظاهرة، فإنه إذا فقد عمله مثلاً تراه

---

١ بصائر الدرجات: ص٢٦.

يضطرب نفسياً وتنتابه حالة خوف من المستقبل. هذا يكشف أنه يعتمد على الأسباب لا على مسبب الأسباب، فمسبب الأسباب حاضر لا يزول، فلو كان يعتمد عليه لما زالت الطمأنينة من قلبه، لأنَّ قلبه يعلم أن الله تعالى مقسم الأرزاق، فإذا لم يقدر له رزق هذه الفترة فلن يستطيع تحصيله مهما فعل لما في مضامين الروايات المتقدمة.

فالشيطان هو من يخوِّف الإنسان من الفقر كما في الآية ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾[1] والخوف حالة قلبية إذا طالت تسلب التوكل من القلب.

---

١ البقرة: ٢٦٧

الثقة بالله تعالى وحده

اقرأ أسماء الله الحسنى لتعرف من هو الله تعالى بصفاته، وأي عظيم هو وأي قادر هو.

وقد مرَّ ذكر بعض الصفات في بعض النصوص، فمن أسماء الله عز وجل:

القدير:

القدير مبالغة في القدرة، ونحن وما في الأرض جميعاً ضعفاء نحتاج إلى عون الله تعالى، فلا بد من عقد القلب على الإستعانة به دون غيره.

الرزاق:

وهو أيضا مبالغة في الرازقية على صيغة "فعال" فالله عز وجل هو الرازق، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] إلا أنَّ أكثر الناس تتكل في الرزق على الأسباب والمرزوقين.

---

١ سبأ: ٣٦.

على الإنسان أن لا يتكل في تحصيل المال على نفسه، ولا يثق بما عنده في تحصيل أموره بل يجب أن يثق بالله تعالى دون سواه.

إنَّ المؤمن يُسلِّم أنَّ الرازق هو الله تعالى، فلا بد أن يتوجه إليه تعالى ويطلب منه الرزق، فالآيات والروايات مستفيضة بأنَّ الرازق هو الله وحده دون غيره.

يقول الله تعالى في محكم كتابه ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1] ويقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[2] ويقول عز وجل ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[3] وفي الدعاء للأمير عليه السلام «الحمد لله الذي جعل رزقي في يده ولم يجعله في أيدي الناس»[4]، ومر في بعض

---

١ الذاريات:٢١.

٢ الذاريات: ٥٨

٣ هود: ٦.

٤ المصباح (الشيخ الكفعمي): ١٧٠.

الأدعية «أنت الرازق وأنا المرزوق وهل يرحم المرزوق إلا الرازق»[١]، فهل هنالك رازق غير الله تعالى حتى تتوجه بقلبك إليه؟

وبما أنه لا رازق ولا قادر إلا الله لا يتكل المؤمن على ما في يده من مال وغيره، ففي الحديث: «لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده»[٢] فالمؤمن لا يثق بما في يده في قضاء حوائجه بل هو واثق بالله تعالى.

ومن الطرائف التي يذكرها البعض، أنَّ أحدهم كان في بيته مع زوجته فقال لها: سأذهب إلى السوق واشترى حماراً، فقالت له: قل إن شاء الله تعالى، فقال لها المال في جيبي والحمار في السوق، ثم ذهب ليشتري الحمار وإذا بفرقة من الجيش العثماني تمسك به وتأخذه إلى الحرب لأنَّه كان فارّاً من الجندية، فغاب فترة من الزمن ثم عاد إلى بيته فطرق الباب فقالت له زوجته: من الطارق فقال: إن شاء الله زوجك.

---

١ المزار (ابن المشهدي): ص ١٧٤.

٢ نهج البلاغة: ج ٤ ص ٧٤.

فهو وثق بماله وقدرته فلم يحصِّل شيئاً، فلم تتحقق إرادته ووقع المحذور، فعلى الإنسان أن يثق بالله تعالى وحده دون نفسه والناس.

إنَّ المؤمن لا يثق بقوته ولا بماله، لأنه يرى كل ما في الكون مفتقر إلى الله تعالى، فكل سبب مفتقر في بقائه إلى المدد من الله تعالى، وفي تأثيره إلى الشروط.

إنَّ الأسباب، وإن تمّت شرائطها الظاهرة، فتأثيرها متوقف على إذن الله تعالى، فإنَّ النار أثرها الإحراق ولكن هذا السبب لم يؤثّر أثره، بل كان أثره ضد الأثر الأول مع نبي الله إبراهيم عليه السلام.

فحين أراد القوم إحراقه رموه في نار عظيمة وصلت إلى حدٍ لو مرَّ الطائر فوقها احترق، ولكن الله تعالى قال لها ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[1]، فبدّل الله تعالى أثر النار من الإحراق المتلف إلى البرد والسلام.

---

١ الأنبياء: ٦٩.

والله يسبب أسباب لا يتوقعها الإنسان، فكم من مرة جاءك رزق من جهة لم تحتسبها، وكم مرّة قضيت حاجتك من جهة لا تحتمل قضاء حاجتك بها.

ففي دعاء الإمام المهدي عليه السلام :«يا مسبب الأسباب سبب لنا سبباً لا نستطيع له طلباً»[١]

هذا الدعاء يشمل كل شيء سواء الرزق والحاجة أم غيرها، فعلى الإنسان أن لا يستعين إلا بالله تعالى.

الشافي:

إن الإنسان حينما يمرض يلجأ إلى الطبيب، فالمال في جيبه والطبيب في المستشفى، فيسأل عن الطبيب الحاذق، فإن سألته عن سبب اختياره يقول: هو الأفضل لشفائي، ونراه لا يذكر الله تعالى، فإذا شفي على يد الطبيب يقول الطبيب الفلاني وصف لي دواءً وشفيت، ولا يذكر الله تعالى أصلاً، ولو ذكره يكون ذكراً لفظياً وقلبه يشعر بشفاء الطبيب له، ولكن إذا عجز

---

١ المصباح (الشيخ الكفعمي): ص٣٠٥.

الأطباء عن مداواته لصعوبة مرضه تراه بعد يأسه من الأطباء يرجع إلى الله تعالى ويدعوه ويتوسل إليه.

فأعجب ما في هذا الأمر أنه إذا صعبت حالته ولم يهتدِ الأطباء إلى شفائه التجأ إلى الله تعالى، وإذا كان المرض يسيراً يلتجئ إلى الطبيب وينسى الله تعالى القادر على المرض العضال، فكيف لا يكون قادراً على غيره، بل الشافي هو الله تعالى في كل الأمراض الصعب منها والسهل.

ففي كتاب الله تعالى قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[1]، وفي الدعاء عن الأمير عليه السلام: «اللهم بحق محمد وآله أن تكشف عني العلل الغاشية في جسمي وفي شعري وبشري وعروقي وعصبي وجوارحي فإنَّ ذلك لا يكشفها غيرك يا أرحم الراحمين»[2] والنصوص في هذا المعنى كثيرة، حتى أنَّه ورد لكل مرض أو ألم عوذة ودعاء، وكلُّها مثل هذا الدعاء في وضوح أن الشافي هو الله تعالى لا الطبيب وغيره، فإذا

---

١ الشعراء: ٨٠

٢ بحار الأنوار: ج٩٢ ص١٠٤.

لم يكن هو الشافي فلماذا إذا صعب المرض ولم تؤثر فيه الأدوية يلتجئ الإنسان الى الله تعالى بفطرته؟ هل لأنه يعرف أن الله تعالى قادر على شفائه أم لأمر آخر؟!

شبهة ودفعها

القول إن هذه النصوص داعية الى ترك التداوي، مدفوع بأنه لا نظر لها الى الحث أو التثبيط عن الأسباب الظاهرة، والنصوص وسيرة الحجج عليهم السلام آمرة بالتداوي بل إن هناك نصوص تصف الدواء للأدواء، فحال النصوص المثبتة أن الله هو الشافي كحال تلك المثبتة أنه الرازق، فهي في صدد بيان أن الشافي الحقيقي هو الله تعالى وحده، وأنه على الإنسان أن لا يثق في الشفاء الا بالله عز وجل ولا يتوكل فيه الا عليه جل وعلا.

أما الأسباب الظاهرة ففيها نحو اقتضاء لمثل الشفاء والرزق قد أودعه الله تعالى فيها، الا أنَّه لا يرقى الى السببية التامة لتحقق الغرض، بل نفس هذا الاقتضاء إنما هو من جعل الله تعالى، مفتقرٌ إليه حدوثاً واستمراراً، لا بل

إن الله قد يبدل اقتضائها نحو الضد، فبعض الأسباب الظاهرة للشفاء قد يتحول الى سبب لازدياد المرض فرُبَّ دواء للنظر قد سبب العمى، وكم من سبب للرزق صار سبباً لذهاب المال وللفقر، فالله هو ولي الاعطاء والمنع، وهذا رأيناه كلنا، ولكن كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ما أكثر العبر وأقل الاعتبار»[١].

عودة الى الثقة

على الانسان إذن أن لا يثق بنفسه ولا بالناس، فثقة المؤمن لا تكون الا بالله وحده وتوكله لا يكون الا عليه جل وعلا، ففي الحديث: «يا غلام خف الله يكفك ما سواه، إذا سألت فاسأل الله، إذا استعنت فاستعن بالله ولو أنَّ جميع الخلائق اجتمعوا على أن يصرفوا عنك شيئاً قد قُدّر لك لم يستطيعوا، ولو أنَّ جميع الخلائق اجتمعوا على أن يصرفوا إليك شيئاً لم يُقدَّر لك لم يستطيعوا»[٢].

---

١ نهج البلاغة: ج ٤ ص ٧٤.

٢ الأمالي (الشيخ الطوسي): ص ٦٧٥.

فهذه الرواية تجعل العبد لا يثق بأن تعطيه أيٌّ قدرة شيئاً لم يقدره له الله، فكيف يثق بفرد واحد إذا كان الجميع غير قادرين على إعطائه، فمن يعلم ذلك ويتيقن به لا بد له أن يلتجئ إلى الله تعالى ويثق به وحده لأنه القادر المطلق والقوي.

فعلى الإنسان أن يستعين بالله تعالى على أموره كلها، ففي وصية النبي ﷺ « يا أبا ذر: إن سرك أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله عز وجل، وإن سرك أن تكون أكرم الناس فاتق الله، وإن سرك أن تكون أغنى الناس فكن بما في يد الله عز وجل أوثق منك بما في يدك»[١]، فالقوة والقدرة والرزق وكل شيء من الله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٢]، فلِمَ تطلب ما كان لله وحده من غيره تعالى وتثق بغيره فيه؟!

نعم لا بد من الأخذ بأسباب القوة لكن دون الثقة بها، فلو وثقنا بها وكلنا الله اليها، والعياذ بالله.

---

١ مكارم الأخلاق: ص٤٦٨.

٢ البقرة: ١٦٥.

حتى عقولنا علينا أن لا نثق بها فأمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إتهموا عقولكم فإنه من الثقة بها يكون الخطأ»[1].

وعلينا أن نستفهم الله تعالى كما في رواية عنوان البصري عن الصادق عليه السلام: «واستفهم الله يفهمك»[2]، حتى أنَّ الأحاديث تنهانا عن الاستئثار

---

١ عيون الحكم والمواعظ: ص ٩١.

٢ بحار الأنوار: ج ١ ص ٢٢٥، ونوردها كاملةً لما فيها من نور يضيء القلوب، وهي هذه الرواية: «عن عنوان البصري – وكان شيخاً كبيراً قد أتى عليه أربع وتسعون سنة – قال: كنت أختلف إلى مالك بن أنس سنين، فلما قدم جعفر الصادق (عليه السلام) المدينة اختلفت إليه، وأحببت أن آخذ عنه كما أخذت عن مالك، فقال لي يوماً: إني رجل مطلوب ومع ذلك لي أوراد في كل ساعة من آناء الليل والنهار، فلا تشغلني عن وردي، وخذ عن مالك، واختلف إليه كما كنت تختلف إليه، فاغتممت من ذلك، وخرجت من عنده وقلت في نفسي: لو تفرس فيَّ خيراً لما زجرني عن الاختلاف إليه والأخذ عنه، فدخلت مسجد الرسول (صلى الله عليه وآله) وسلمت عليه، ثم رجعت من الغد إلى الروضة وصلّيت فيها ركعتين، وقلت : أسألك يا الله يا الله أن تعطف علي قلب جعفر وترزقني من علمه ما أهتدي به إلى صراطك المستقيم ، ورجعت إلى داري مغتماً ولم أختلف إلى مالك بن أنس لما أشرب قلبي من
حب جعفر، فما خرجت من داري إلا إلى الصلاة المكتوبة حتى عيل صبري، فلما ضاق صدري تنعلت وترديت وقصدت جعفراً وكان بعد ما صليت العصر، فلما

حضرت باب داره استأذنت عليه فخرج خادم له فقال: ما حاجتك؟ فقلت: السلام على الشريف، فقال: هو قائم في مصلاه، فجلست بحذاء بابه فما لبثت إلا يسيراً إذ خرج خادم فقال: ادخل على بركة الله، فدخلت وسلمت عليه، فرد السلام وقال: اجلس غفر الله لك، فجلست فأطرق مليا، ثم رفع رأسه، وقال: أبو من؟ قلت أبو عبد الله، قال: ثبت الله كنيتك ووفقك، يا أبا عبد الله ما مسألتك؟ فقلت في نفسي: لو لم يكن لي من زيارته والتسليم غير هذا الدعاء لكان كثيراً، ثم رفع رأسه، ثم قال: ما مسألتك؟ فقلت: سألت الله أن يعطف قلبك علي ويرزقني من علمك، وأرجو أن الله تعالى أجابني في الشريف ما سألته، فقال: يا أبا عبد الله ليس العلم بالتعلم، إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه، فإن أردت العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك.

قلت: يا شريف فقال: قل يا أبا عبد الله، قلت: يا أبا عبد الله ما حقيقة العبودية؟

قال: ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوَّله الله ملكا، لأن العبيد لا يكون لهم ملك يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به، ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله فيما أمره تعالى به ونهاه عنه، فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوله الله تعالى ملكاً هان عليه الانفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق فيه، وإذا فوض العبد تدبير نفسه على مدبره هان عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هان عليه الدنيا، وإبليس، والخلق، ولا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً، ولا يطلب ما عند الناس عزاً وعلواً، ولا يدع أيامه باطلا، فهذا أول درجة التقى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قلت: يا أبا عبد الله أوصني، قال: أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى، والله أسأل أن يوفقك لاستعماله، ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم، فاحفظها وإياك والتهاون بها، قال عنوان: ففرغت قلبي له.

فقال: أما اللواتي في الرياضة: فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنه يورث الحماقة والبله، ولا تأكل إلا عند الجوع، وإذا أكلت فكل حلالاً وسمِّ الله، واذكر حديث الرسول (صلى الله عليه وآله): ما ملأ آدمي وعاءاً شراً من بطنه فإن كان ولابد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنَفَسه.

وأما اللواتي في الحلم: فمن قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشراً فقل: إن قلت عشراً لم تسمع واحدة، ومن شتمك فقل له: إن كنت صادقاً فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذباً فيما تقول فالله أسأل أن يغفر لك، ومن وعدك بالخنى فعده بالنصيحة والرعاء.

وأما اللواتي في العلم: فاسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتا وتجربة وإياك أن تعمل برأيك شيئاً، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلا، واهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسرا.

قم عني يا أبا عبد الله فقد نصحت لك ولا تفسد عليَّ وردي، فإني امرؤٌ ضنينٌ بنفسي، والسلام على من اتبع الهدى».

بعقولنا وتأمرنا باستشارة غيرنا من ذوي العقول، يقول أمير المؤمنين عليه السلام «شاور ذوي العقول تأمن الزلل والندم»[١]، ويقول صلوات الله عليه «من شاور ذوي العقول استضاء بأنوار العقول»[٢].

ومن هذه الروايات نفهم أن العاقل لا يثق بعقله بل يستشير ذوي العقول، فإذا غاب شيء عن عقله أرشدوه إليه وخصوصاً إذا كانوا أصحاب تجارب، فهم يجعلونه يتفادى الأخطاء ويقربونه الى الصواب، ومن هنا كان قول أمير المؤمنين عليه السلام «لا يستغني العاقل عن المشاورة»[٣] لأنَّه يعرف بعقله أنه لم ولن يستطيع أن يحيط بالأمور[٤].

فإذا كان العاقل لا يثق بعقله الذي هو أفضل ما في الإنسان فبأي شيء يثق بعد ذلك.

---

١ غرر الحكم: ٥٧٥٥، ٣٢٧٦، ٤٩٩٠.

٢ غرر الحكم: ٨٦٣٤، ١٥٠٩، ١٢٠٧، ١٢١٧، ١٨٥٧.

٣ غرر الحكم: ١٠٦٩٣، ٤٩٢٠.

٤ فإنَّ الله يجري الخير والصواب في المشورة كما في الأخبار، وهذا من الأخذ بالأسباب ويجتمع مع التوكل.

فالثقة إذن بالله تعالى فقط، ففي الدعاء عن الأمير عليه السلام «وأنت يا مولاي ثقة من لم يثق بنفسه لإفراط حاله»[١]، ومن دعائه عليه السلام«إلهي إني جرت على نفسي في النظر لها وبقي نظرك لها، فالويل لها إن لم تسلم به»[٢].

فهذا الدعاء واضح وضوح الشمس أنَّ المؤمن لا يثق بنفسه بل يثق بالله تعالى، ويجعل نظر الله له هو الفرج إذا سلَّمت النفس بأن الله هو القادر على كشف الضرر عنها، وأما إذا لم تسلِّم فلها الويل، فإلى أي درجة يجب أن تصل ثقة العبد بربه؟

وفي دعائه عليه السلام « وإذا كثرت عليَّ الهموم لجأت إلى الاستجارة بك علماً بأن أزمَّة الأمور بيدك ومصدرها عن قضائك»[٣]، ولأجل كل ما تقدم يقول الأمير عليه السلام في دعائه: «اللهم من عليَّ بالتوكل عليك والتفويض إليك والرضا بقدرك والتسليم لأمرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير

---

١ البلد الأمين: ص١١٣.

٢ البلد الأمين: ص٣١٦.

٣ مصباح المتهجد: ص٣٦٥.

ما عجلت يا رب العالمين»[1]، فهو عليه السلام يطلب التوكل على الله من الله تعالى لأنه لا ثقة عنده بغيره عز وجل.

بل يقول عليه السلام في دعاء آخر «اللهم إني أبرأ من الحول والقوة إلا بك وأدرأ بنفسي عن التوكل على غيرك»[2].

فهذا المقطع من الدعاء يوضح المطلوب، فكل العبيد كذلك لا حول ولا قوة لهم، وكل الحول والقوة بيد الله تعالى، فالعبد لا بد أن لا يتوكل على نفسه ولا يثق بها، بل يثق بمن عنده الحول والقوة وهو الله تعالى دون سائر البشر والعبيد، خصوصاً بعد أن اتضح أن التوكل متفرع عن الثقة، فمن تثق به تتوكل عليه، وخلاف هذه القاعدة لا يصدر من عاقل.

---

١ الكافي: ج ٢ ص ٥٨١.

٢ شرح نهج البلاغة: ج ٢٠ ص ٣٤٨.

عرف الله بفسخ العزائم ونقض الهمم

في دعاء للإمام زين العابدين عليه السلام «وحلت بين القلوب وبين تصريفها على اختيارها، فأيقنت البرايا أنك مدبرها وخالقها، وأذعنت أنك مقدرها ورازقها، لا إله إلا أنت تعاليت عما يقول الظالمون علواً كبيراً»[1].

وفي دعاء آخر له عليه السلام «واجعل قلبي واثقاً بما عندك وهمي مستفرغاً لما هو لك»[2].

ومن هنا نفهم معنى كلمة علي عليه السلام عندما سُئل بما عرفت ربك فقال عليه السلام « بفسخ العزم ونقض الهمم، لما أن هممت حال بيني وبين همي، وعزمت فخالف القضاء عزمي، فعلمت أن المدبر غيري»[3]، فالإنسان عنده ثقة بقدرته ولكنه قد ينام عازماً ويصبح لا عزيمة عنده على الفعل، فالله تعالى هو الذي فسخ له عزمه، لأنه نام عازماً ومن دون أي سبب استيقظ ناقضاً

---

١ الصحيفة السجادية الجامعة: ص٤٣٧.

٢ الصحيفة السجادية الجامعة: ص٣٣٢.

٣ بحار الأنوار: ج٣ ص٤٢.

لعزمه، فأي ثقة بالنفس التي لا يُؤمَن بقاء عزيمتها واختيارها لأمر، ولا تعرف الموانع التي يمكن أن تمنع من حدوث مطلوبها.

شبهة

إنَّ الإنسان إذا لم يكن عنده ثقة بالإنتصار لا يقدم على الحرب ومن ليس عنده ثقة بقدرته على الإتجار لا يتجر وهكذا في كل المجالات.

فالإنسان الذي لا ثقة له بحمل شيء ثقيل لا يقدم على حمله، وأنت إذا لم تكن عندك ثقة بأن ولدك يعرف السباحة لا تتركه يسبح وحده وهكذا، فهل الله تعالى أمرنا أن نثق به ونرمي بأنفسنا الى التهلكة، وهو الذي أمرنا أن نكون أقوياء غير عاجزين ولا ضعفاء، فلا بد من الذهاب الى الطبيب ولا بد من شرب الدواء ولا بد من السعي الى الأسباب في الرزق، فهل نثق بالله تعالى ونجلس في البيت، وفي الروايات أن الله تعالى لا يستجيب لمن دعاه للرزق وهو جليس داره لا يحرك يداً ولا رجلاً في طلب المعاش، وأنَّ الإنسان مأمور بالذهاب إلى الطبيب وشرب الدواء.

والصحيح

أنه يوجد مُعِدّ أو مقتضٍ، وسبب تام. والخطأ منشؤه الخلط بينهما، بأن ينظر المرء الى المعدّ على أنه سبب.

فالإنسان يتحرك بالأسباب ولكن يجب أن تكون ثقته بمسبِّب الأسباب، ومن هنا نرى الله سبحانه وتعالى أمر المسلمين بالإعداد للحرب ولكن أمرهم أن يثقوا بالنصر من عنده تعالى لا من جهة ما أعدوه للحرب فقد قال تعالى ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[1].

وبهذا المعنى القول المتداول "اعقل وتوكل"، أي اعمل بالأسباب الظاهرية ولكن ثق أنها وتأثيرها مشروطان بإذن الله تعالى.

فأنت عليك أن تسعى بالأسباب الظاهرية ولكن السبب الحقيقي يكون من الله تعالى كما هو حال الرزق، فإن الله تعالى يأمرنا بالسعي بأسباب الرزق ولكن الرزق للمؤمن مع سعيه يكون غالباً من حيث لا يحتسب.

---

١ آل عمران: ١٢٦.

وقد علّمنا الإمام المهدي صلوات الله عليه أن نطلب من الله تعالى تيسير الأمور من أسباب ليست بأيدينا فقد قال عجل الله له الفرج في دعائه الشريف: «يا مسبب الأسباب سبب لنا سبباً لا نستطيع له طلباً»[١]، فالثقة إذن بالله تعالى لأنه هو من يسبب لنا الأسباب للرزق وغيره، وكونه غيبياً فلأجل جعل المؤمن متعلقاً بالله تعالى ومؤمناً بالغيب ومكثراً من الدعاء لله تعالى لأنه يرى الأسباب بيده عز وجل.

---

١ المصباح (الشيخ الكفعمي): ص٣٠٥.

وجوب الإعداد والثقة بنصر الله تعالى

قال تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[1]

الشرح:

الآية تدل على وجوب الإعداد للحرب ولكن الثقة بالنصر لا تكون بهذا الإعداد، بل الثقة بالله تعالى.

والذي يوضح هذا الأمر هو ما حدث في معركة بدر فإن المسلمين كانوا قلة ولكن جاءهم النصر لأنهم توكلوا على الله تعالى فكان فعل الله تعالى ما ذكر في الآية، فقلل الكفار في أعين المؤمنين وكثر المؤمنين في أعين الكافرين، وكان المؤمنون يومها ثلاثمائة وثلاثة عشر وكان المشركون قرابة الالف، وأمد الله المؤمنين بآلاف من الملائكة، هذا وكانت عدة المؤمنين أيضاً قليلة بينما الكفار مدججون بالسلاح، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ

---

١ الأنفال: ٦٠.

(١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)﴾[١].

وقال تعالى لرسوله ﷺ ليخاطب اليهود بعد بدر ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾[٢].

فهذه الآيات لا تنفي وجوب الاعداد، ولكنها تبين أن سبب النصر الحصري من عند الله، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[٣]، فالعدد والعدة معدات، أما السبب الحقيقي فهو الله تعالى، فإن الله تعالى أمدهم بالملائكة وهم من عالم الغيب فنصرهم بهم في عالم

---

١ آل عمران: ١٢٣-١٢٦.

٢ آل عمران: ١٢-١٣.

٣ آل عمران: ١٢٦.

الشهادة، فالثقة والتوكل على الله تعالى جعلت عالم الغيب يؤثر في عالم الشهادة والملك بشكل مباشر.

يقول السيد عبد الاعلى السبزواري في تفسيره مواهب الرحمن: (والآية الشريفة تؤكد نصر الله تعالى للمؤمنين فتذكِّرهم بالنعم التي أنعمها عز وجل عليهم، فقد نصرهم الله تعالى في بدر ذلك النصر الباهر على أعدائهم مع ما هم عليه من العدة والعدد، كما أيد الله تعالى المؤمنين بالملائكة، وهو يكفي في التنبيه على أن التوكل على الله تعالى بعد إقامة السبب الظاهري يؤثر الأثر الكبير العجيب.

فتكون الآية الشريفة مسوقة لإيجاب التوكل على الله تعالى بذكر أحد موارده، كما أنها تؤكد اللوم والعتاب على ما ظهر منهم من الهم والفشل في أُحُد، فكان الأجدر بهم أن لا يَهِنوا في الحرب، فإن الله تعالى على نصرهم لقدير كما نصرهم في غزوة بدر الكبرى مع ذلة المؤمنين ظاهراً واستذلال المشركين لهم، حيث لم يكن لهم أهمية حرب ولا عزة

محارب ولا منعة له من العدة إلا جريد النخل وفرسين وأباعر معدودة يتعاقب عليها بعض المسلمين وقليل الزاد).

أما في معركة حنين، فكان المسلمون قد أعدوا جيشاً كبيراً فأعجبتهم كثرتهم فاتكلوا على هذه الكثرة، فكان الضعف حليفهم لولا لطف الله تعالى، قال تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)﴾[1].

فالله جل وعز يقول ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ وفي هذه الآية دلالة واضحة على أنه ما كان ينبغي لهم أن يثقوا بقوتهم، فالله وحده يجب أن يكون محل الثقة، وهذا بخلاف ما عاشوه في بدر، فإنهم لم يتأخر عنهم النصر لأنهم كانوا شاعرين بضعفهم وأنَّ قوتهم بالله وحده،

---

١ التوبة: ٢٥-٢٦.

فالآية توضح أن النصر من الله تعالى بدليل أن المعارك التي خاضها الرسول ﷺ كانت تُحسَم بأسباب غيبية، منها إرسال الملائكة.

وفي معركة الأحزاب، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[1]

قال صاحب الميزان (فالآية هي هنا تذكير للمؤمنين بما أنعم عليهم أيام الخندق بنصرهم وصرف جنود المشركين عنهم، وقد كانوا جنوداً مجندة من شعوب وقبائل شتى كغطفان وقريش والأحابيش وكنانة ويهود بني قريظة والنضير أحاطوا بهم من فوقهم ومن أسفل منهم فسلط الله تعالى عليهم الريح وأنزل ملائكة يخذلونهم)[2]

فهنا الله تعالى أرسل ريحا لتكون من أسباب هزيمتهم، وكذلك أرسل جنودا لم يرها المؤمنون لأنهم توكلوا على الله تعالى.

---

١ الأحزاب: ٩.

٢ تفسير الميزان: ج١٦ ص٢٨٥.

ومن دعاء للإمام الحسين عليه السلام «اللهم إن كنت حبست عنا النصر»[١].

وفي هذا الدعاء دلالة واضحة على أن النصر من عند الله حبسه ساعة شاء وأنزله كذلك، فالنصر لا تتوصل إليه بمجرد المجيء بالأسباب لأنها في واقعها معدٌّ لا أكثر.

وعليه فهنالك فرق بين السبب الظاهري الذي هو في واقعه معد أو سبب ناقص وبين العلة الواقعية وهو الله جل شأنه، فالإنسان إذا أراد عمل شيءٍ فلا بد أن يعلم أن عنده القدرة على فعله، ولكن الثقة والتوكل لا بد أن يكونا على الله تعالى وحده، فعليه أن يثق بقدرة الله تعالى لا بقدرته هو، وأن يتوكل على الله وحده لا على غيره.

---

١ بحار الأنوار: ج٤٥ ص٤٧.

عالم الأسباب والمسببات له حالات استثناء

لكثرة ما يشاهده الناس من جريان المسببات بأسباب مادية ظاهرية يظنون أنها الأسباب الحصرية التي يمكن أن تؤثر في الخارج، بينما واقع الحال أن هناك أسباب غيبية تتدخل في الأمور وليس هذا خروجاً عن القاعدة بل توسعة لها الى الأسباب الغيبية.

وأكبر مثال على ذلك ما حدث في معركة الأحزاب فقد أمر الله الريح والملائكة بالتأثير في المعركة، وهذا النحو من الأسباب الغيبية لا يعد من الاعجاز الظاهر، فبعض الناس سيفسرون هبوب الريح بالأمر الطبيعي الذي صادف المعركة، واما ما أثره الملائكة فيزعمون له الف مبرر ومبرر، و تارة يكون إعجازاً ظاهراً فلا يمكن تأويله بالأسباب المعدة الظاهرة، ولا يستطيع أن ينكر غيبيته وإعجازه الا مكابر، مثل شق موسى عليه السلام البحر بالعصا، فالعصا ليست سبباً لشق البحر بحسب الأسباب المعتادة، ولكن الله تعالى جعلها سبباً خاصاً أو أنها كانت دليلاً على تدخله بشق البحر، وكذلك حينما دعا صالح لخروج ناقةٍ من الجبل، فمن غير

المعقول كونه موافقاً للأسباب الظاهرة، فالجبل ليس رحماً للناقة، وانما هو أمر الله تعالى الذي إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون، ومن هذا الباب ما يحصل على يد الأنبياء والأولياء عليهم السلام بدعاء أو ولاية تكوينية من تغيير لماهيات الأشياء فالتراب قد يتحول ذهباً ونظير هذه الأمور مذكور بكثرة في النصوص الدينية.

وتارةً يكون سبباً ناقصاً حتى في نظر الناس، مثل هزِّ السيدة مريم عليها السلام لجذع النخلة بأمر من الله تعالى، فإن هز النخلة حتى تسقط الرطب من رجل ممتنع عادة فكيف إذا كانت امرأة بعد الولادة أي في غاية الضعف، فلا بد من تدخل غيبي، قال تعالى ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[1].

فما فعلته مريم عليها السلام هنا كان سبباً ناقصاً لا يكفي لحصول النتيجة لكن الله تممه بقدرته، أمّا عندما كانت في بيت المقدس فقد كان الطعام يأتيها بأسباب غيبية محضة، قال الله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ

---

١ مريم: ٢٥.

وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]، فما قبل الحمل كان زمن إعداد لمريم عليها السلام من عدة جهات، ومنها الاعداد لأخذ النتائج من أسباب غيبية محضة كان آخرها حمل عيسى عليه السلام من غير أب، كما كان زمن إكرام وتشريف أيضا، اما ما بعد الحمل فقد كان زمن ابتلاء وتشريف بالتكليف، فقد أهّلها الله تعالى لطاعته ومواجهة المجتمع الذي انسلخ عن الايمان بالغيب بالثقة بالله جل وعز والتوكل عليه تعالى وحده.

وتارة أخرى بنزع الله تعالى الأثر اللازم من مؤثره، فقد ينزع الله من السمِّ أثره، ومثل وضع دانيال النبي عليه السلام مع السباع الجائعة وهذا سبب للقتل الشنيع، ولكنَّ ما حدث أنها لانت له وكأنها القطط المروضة، وكذلك ما حصل مع بعض الأئمة عليهم السلام.

وأحياناً لا يقتصر الامر على نزع الأثر، بل يتعداه الى تبديل الأثر بضده، كما حدث مع ابراهيم عليه السلام فلقد رموه عليه السلام في نار لو مر الطائر فوقها

---

١ آل عمران: ٣٧.

بمسافة بعيدة لاحترق، حتى أنهم اضطروا أن يرموه بالمنجنيق لأنهم لم يستطيعوا أن يقتربوا من النار، ومع هذا كله فقد بدَّل الله الحرارة والاحراق بالبرد والسلام، حتى قال نمرود طاغية عصره لآزر: ما أكرم ابنك على ربه، قال الله تعالى ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾[١].

وفي قصة خروج يوسف عليه السلام من السجن قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[٢] ذكرت الروايات أنها سبع سنين، فهنا قد طلب يوسف عليه السلام الشفاعة في خروجه من السجن وهو سبب عرفي يأخذ به الناس، لكن الله تعالى جعله سبباً لبقائه في السجن سبع سنين، لأنَّ الله تعالى يريد من أوليائه أن لا يلتفتوا إلا إليه جل وعلا في كل شيء.

---

١ الأنبياء: ٦٨-٦٩.

٢ يوسف: ٤٢.

وكثيراً ما يتدخل الغيب في تيسير أسباب ظاهرية لم تكن محتسبة عند من يسرها الله له، فلا يكون خطر بباله أنَّ هذا الأمر سيكون سبباً للرزق مثلاً، فهو لم يسعَ خلفه بل لم يفكر به ولكن الله سبَّبَه ويسره.

فلما كان الله تعالى هو الرازق وهو المانع وهو المعطي وكل ما في عالم الوجود يسير على طبق إرادته وتدبيره جل وعلا، كيف يتوجه الانسان إلى غيره وهل يوجد من هو اهل لأن تثق به وتتوكل عليه؟! فالله تعالى يوجد لك سبباً للرزق وغيره لا تحتسبه ويبدل أثر الأشياء الى أضدادها لو وثقت به وتوكلت عليه.

فإذن علينا أن نعرف أنَّ الأسباب وتأثيرها في مجال أفعال العباد لها حالات استثناء كما مرّ، ففي عالم الإختبار الخضوع لله تعالى والتوكل عليه والثقة به هي السفينة للوصول إلى لطف الله تعالى وتوفيقه.

تدبير العبد وتدبير الرّب

قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «تذل الأمور للمقادير، حتى يكون الحتف في التدبير»[١] فما قدَّره الله تعالى لك سيحصل حتى لو تدبّرت الحِيَل للخروج منه، بل ستكون هي سبباً لوقوع المحذور، كما حدث مع المتوكل فإنَّه اشترى سيفاً من بغداد بعشرة آلاف درهم وهذا السيف كان ثقيلاً فبحثوا عن رجل يستطيع حمله فجاؤوا ببغا التركي، وإذا بالرجل الذي جاء به لحمايته بذلك السيف يقتله به، فما دبره لحمايته كان سبباً لقتله، وعن ابي عبد الله عليه السلام: «كم من ساع الى حتفه وهو مبطئ عن حظه»[٢].

أما أولياء الله، فإن الله تعالى يغنيهم بتدبيره عن تدبيرهم، بل يدبر أمورهم بما خفي على جميع الناس.

---

١ نهج البلاغة: ج ٤ ص ٥.

٢ قرب الاسناد: ص ٤٠.

فمثلا نبي الله موسى عليه السلام جعل الله نجاته من فرعون وهو رضيع لا حول له ولا قوة بوضعه داخل بيت فرعون، بينما أهلك الأخير على يد موسى عليه السلام الذي قتل كل أبناء جيله ليحرز قتله، قال تعالى ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾[١].

فعليك أيها العبد أن تسعى لرضى الله تعالى والتوكل عليه وتفويض الأمور اليه جل وعلا، وخذ بالأمور التي جعلها الله تعالى أسباباً لتحقق المطلوب وأخبرك عنها الطاهرون عليهم السلام، فإن أردت الزيادة في الرزق فخذ بما جعله الله سبباً مثل الاستيقاظ بين الطلوعين والاشتغال بالتعقيب والاستغفار، واترك الأسباب التي تجلب الفقر مثل الزنا وغيره من الأمور.

---

١ القصص: ٨-٩.

فالرزق بيد الله تعالى هو من يقدِّره لعباده ويزيد لهم في رزقهم، فالسعي للرزق ليس فقط بالأخذ بالأسباب الظاهرة بل مع ذلك يجب التمسك بمسبب الأسباب جل وعز.

ثم إياك أن تؤمل بغير الله في أي أمر من أمورك، بل ثق بالله وحده، ومنه وحده فليكن طلبك، وعليه وحده فليكن اتكالك، ففي الحديث القدسي: «وعزَّتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لأقطعن أمل كل مؤملٍ من الناس غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس، ولأنحينه من قربي ولأبعدنه من فضلي، أيؤمّل غيري في الشدائد والشدائد بيدي؟ ويرجو غيري، ويقرع بالفكر باب غيري، وبيدي مفاتيح الابواب وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني، فمن ذا الذي أملني لنائبة فقطعته دونها؟ ومن الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني؟

جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي، وملأت سماواتي ممن لا يمل من تسبيحي، وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي، ألم يعلم من طرقته نائبةٌ من نوائبي أنه لا

يملك كشفها أحد غيري إلا من بعد إذني، فما لي أراه لاهياً عني، أعطيته بجودي ما لم يسألني، ثم انتزعته عنه فلم يسألني رده، وسأل غيري، أفتراني أبدأ بالعطاء قبل المسألة، ثم أُسأل فلا أُجيب سائلي، أبخيلٌ أنا فيُبَخِّلني عبدي؟ أوليس الجود والكرم لي؟

أو ليس العفو والرحمة بيدي؟

أو ليس أنا محل الآمال فمن يقطعها دوني؟

أفلا يخشى المؤملون أن يؤملوا غيري؟

فلو أن أهل سماواتي وأهل أرضي أملوا جميعاً ثم أعطيت كل واحد منهم مثل ما أمل الجميع ما انتقص من ملكي عضو ذرة، وكيف ينقص ملك أنا قيمه؟

فيا بؤساً للقانطين من رحمتي، ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني»[1].

وفي الحديث القدسي الآخر «ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السماوات وأسباب الأرض من دونه، فإن سألني لم أعطه

---

١ الكافي: ج٢ ص٦٦.

وإن دعاني لم أجبه، وما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت السماوات والأرض رزقه، فإن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته، وإن استغفرني غفرت له»[١].

فإنَّ تأثير الاسباب مشروط بعدم منع الله تعالى، ولها شروط وموانع لا يحصيها إلا الله تعالى، وهنالك أسباب لا يعلمها إلا الله تعالى، فليثق العبد بالقادر المطلق والعالم المطلق جل وعلا وليتوكل عليه.

١ الأمالي (الشيخ الطوسي): ص٥٨٥.

التوكل

التوكل تارة يكون لفظياً صورياً، وأخرى يكون حقيقياً له واقع في النفس، فمن يشعر بالقوة لا يمكن أن يكون توكله حقيقياً، لأنَّ الإنسان إذا كان يرى نفسه يستطيع أن يحمل مئة كيلو غراماً مثلاً وكان ما يريد حمله خمسين كيلو غراماً، فهذا لن يتكل على غير نفسه إذا كان يشعر بقوته.

فالإتكال إذن فرع الشعور بعجز النفس وقدرة المتوكَّل عليه.

واعتبر بحال الطفل الصغير فإنه يشعر بالعجز وأن القدرة عند والديه، فتراه دائما يتكل على والديه في كل شيء من إرضاعه الى حمله وحمايته وفي كل شيء يصرخ لوالديه ويتكل عليهما لأنه يشعر بالعجز في كل حالاته، فما علّمه أن يقصر نظره على والديه إلا شعوره بالعجز.

فالإتكال فرع الشعور بالعجز والفقر فمن يشعر بالعجز يتكل على القادر، والإنسان حتى يتكل على الله تعالى في كل شيء يجب أن يشعر أنه عاجز في كل شيء.

فمن ذهب ليفتح الباب وهو يرى القدرة من نفسه على فتحه لا يلتفت الى الله تعالى لعونه، ولكن إذا تعسّر فتح الباب وكان مضطراً لفتحه تراه يبادر الى التوكل بل الى الدعاء والرجاء من الله تعالى لفتح الباب.

والغالب يظن أنه قادر فلا يتوكل على الله تعالى، فالإنسان إذا شعر بالعجز توجه بالفطرة الى الله تعالى كالغريق، ولكن إذا لم يشعر لا يستطيع أن يتوجه إلى الله تعالى حقيقة، فالتوكل أمر حقيقي لا صوري.

فالإنسان بحسب إدراكه يكون توكله، فمن يشعر بالعجز فقط حين العجز الظاهري أي عندما يرى صعوبة الأمر عليه مثل من يتعسّر عليه فتح الباب تراه يتوجه الى الله تعالى في هذه الحالة دون غيرها، وكالمريض الذي لم يعرف مرضه أو دواءه، فإنه يتوكل على الله تعالى، وكذا الغريق، ذلك أن العجز في هذه الحالات ظاهراً وواقعاً.

أمّا القوي من الناس فهو يشعر بقدرة نفسه، ولقصور إدراكه يتصور أنه قادر فلا يلتفت الى غير نفسه في فعله، والسبب هو حصر نظره في القوى الظاهرية.

ولكن العاقل هو من يعرف نفسه بالضعف والفقر والعجز، ويعلم أن هذه القوى الظاهرية لديه من الله تعالى، ويعلم أن حدوثها وبقاءها وتأثيرها مشروط بقدرة الله تعالى، فالإنسان قد يصاب بالعجز والضعف في لحظةٍ كما رأينا، فيمسي المرء سليماً ويصبح سقيماً وهكذا.

ومن هذا الباب كان دعاء الإمام الحسين عليه السلام «إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيرا في فقري»[١]، إنَّ من عرف الحقيقة يرى نفسه فقيراً في حال غناه وضعيفاً في حال قوته، وعندها يتحقق منه التوكل على الله تعالى.

ومع هذا المعنى يتضح لنا أكثر أنَّ القوة والغنى والصحة والنصر وكل خير دائما من عند الله وليس بقدرة العبد، ومن لم يستطع أن يعرف نفسه بالضعف ويشعر بها كذلك حتى في حال قوته فهذا لا يستطيع أن يتوكل على الله تعالى.

---

١ بحار الأنوار: ج٩٥ ص٢٢٥.

ويعظم الخطب ويزداد الخطأ فداحة فيما نراه من تعلق قلوب بعض الناس بأشخاص آخرين إن عرضت لهم حاجةٌ لا يستطيعون سدها، وكأنهم هم القادرون على قضاء حوائجهم، وهذا خطأ فادح كما مر في الحديث القدسي.

فمن يرى غير الله قادراً لم يعرف الله عز وجل ولا وحَّده جل وعلا، وكيف يسلم قلب تعلق بغير الله تعالى، وهذا لا يعني عدم الأخذ بالأسباب كما تقدم.

ثم ما الداعي لأن نقول "إن شاء الله" لو كانت هذه الأسباب تامةً، بل ما معنى التوكل على الله عندها لو كان وجود هذه الأسباب أو تأثيرها خارج عن دائرة الافتقار، ولكن هذه الأسباب الظاهرة لا تعدو كونها معدات وأسباب ناقصة مفتقرة مثلنا لله جل وعلا محتاجة حدوثاً واستمراراً، وجوداً وتأثيراً للقادر الأحد جلت عظمته.

فالمرض مثلاً لا يشفيه إلا الله تعالى، ومن ثَمَّ قال الله تعالى عن لسان إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[1] وتقديم الضمير على الفعل يفيد الحصر، وإن كان هنا مبتدأ، ومن حقه التقدم، الا أن ترجيح الجملة الاسمية على الفعلية في هكذا سياق يكون بغرض الحصر، وفي الصحيفة العلوية: «اللهم بحق محمد وآله أن تكشف العلل الغاشية في جسمي وفي شعري وبشري وعروقي وعصبي وجوارحي فإن ذلك لا يكشفها غيرك يا أرحم الراحمين»[2].

وفي الدعاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «اللهم إنك تكفي من كل شيء ولا يكفي منك شيء فاكفني بما شئت وكيف شئت ومن حيث شئت وأنّى شئت»[3]، فهذا الدعاء يصوِّر بشكل واضح أن الشافي والرازق والمعطي وكاشف الهم والغم هو الله تعالى، ولكن عبر أسباب ولهذا قال: "بما

---

١ الشعراء: ٨٠

٢ طب الأئمة(ع) (ابني بسطام النيسابوري): ص٢٧.

٣ الكافي: ج٢ ص٥١٢.

شئت" أي بأي سبب شئت، فهنا الإمام عليه السلام يقول: إلهي أنا بحاجة وأنت ارفع حاجتي بأي سبب شئت، والإمام عليه السلام لم يشترط سبباً على الله تعالى بل أرجع الأمر الى المدبِّر القدير في اختيار السبب وكيفية وصوله وتأثيره ومن أي جهة شاء وفي أي زمان شاء.

الإرادة والثقة بالنفس

يبرر المروجون للثقة بالنفس مذهبهم بأنَّ من لا يثق بنفسه تنعدم إرادته فلا يكاد يتحرك، فيصيبه فقدان الثقة بعقدٍ نفسية ما يعوق تقدمه في شتى المجالات.

مختصر الكلام في رد هذه الشبهة أنه من المسلَّم توقف الأفعال على الإرادة الا أن حصر أسباب الإرادة بالثقة بالنفس معلوم البطلان، فالإرادة متوقفة على الثقة، والأخيرة أعم من الثقة بالنفس، بدليل تحرك الواثق بغيره، كما أنَّ الثقة أوسع دائرة من الثقة بتحقيق النتائج الظاهرة، وللتثبت اعتبر بحال أصحاب الحسين عليهم السلام فلم يكن عندهم ثقة بالنصر وإنما كانت ثقتهم بأن يقرِّبهم ربهم عز وجل، وكان منهم ما كان من شدة البأس والإقدام في الحرب بما لم يشهد الزمان له نظير، بل إنَّ المتأمل يعرف أنَّ الثقة بالنفس والسعي خلف النتائج الظاهرة التي اعتاد الناس السعي خلفها سبب خفي للكثير من الأزمات النفسية.

وتفصيل الكلام أننا رأينا من وثق بنفسه لتحصيل بعض الأماني وتعب في تحصيلها ولم يُقدَّر له ذلك قد أصيب بأزمة نفسيةٍ صعبةٍ جداً لا تحتمل عادة، والسبب أنه كان واثقاً بنفسه وأراد تحقيق أمانيه وسعى لها، إلا أنه لم يقدر على تحقيقها لأسبابٍ فوقع فيما لا يحتمل من الألم والكآبة، فالثقة بالنفس إذاً ليست حلاً، بل في كثير من الأحيان هي مزلقة نحو المحذور، نعم لا بد من الثقة، ولكن لماذا تكون بالنفس الضعيفة والتي لا حول لها ولا قوة إلا بالله تعالى؟

في المقابل فإن الإنسان إذا وثق بالله تعالى وسعى متوكلاً عليه ثم سلَّم بالنتائج مهما تكن ورضي بها فإنه سيكون في مأمن من الأزمات.

ومن هنا كانت الأحاديث الشريفة مثل قولهم عليهم السلام: «من وثق بالله أراه السرور ومن توكل عليه كفاه الأمور»[١] و«إنَّ الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا»[٢].

---

١ بحار الأنوار: ج٦٨ ص١٥١.

٢ الكافي: ج٢ ص٥٧.

ومما يدلك على عدم توقف الإرادة على الثقة بالنفس تحرك الواثق بغيره، فالإنسان إذا كان ضعيفاً مثلاً وأراد أن يقاتل شخصاً يفوقه قوةً فتراه يخاف أن يقاتله لعدم ثقته بنفسه، ولكن لو ذهب معه الى القتال أخ قوي وله ثقة به تراه لا يضعف بل يذهب غير متردد، فهنا الثقة كانت بغيره لا بنفسه، ومثله من يذهب إلى الطبيب للتداوي فهو غير واثق بنفسه في تشخيص المرض والدواء، ولكن عنده ثقة بالطبيب، لذا تراه يطمئن إليه ويتداوى عنده.

ومن هنا ومما سيأتي إن شاء الله نعلم أنَّ العمل لا يتوقف على الثقة بالنفس بل يتوقف على الإرادة، نعم الإرادة متوقفة على الثقة ولكن الثقة يجب أن تكون بالقوي القادر تعالى وليس بالنفس الضعيفة التي لا حول لها ولا قوة الا بالله، فالإنسان إذا أراد أن يحارب، حتى لو لم يكن عنده ثقة بالنصر فإن ثقته بالله وعظيم جزائه تحركه بل قد يكون سعيداً، ويتجلى ذلك في أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، ذلك أنهم لم يكن لديهم أدنى ثقة بالنصر، بل أخبرهم إمامهم عليه السلام بأن «من لحق بنا استشهد» ومع ذلك أرادوا السير

في طريقه عليه السلام حتى الشهادة في سبيل الله تعالى، ولم نر عندهم يأساً، بل رجاءً برحمة الله تعالى وفضله، حتى أنهم كانوا كلما دنت منهم المنايا ازدادت وجوههم إشراقاً. فالإرادة النابعة من الثقة بالله هي الأساس لا الثقة بالنفس، فهي الكنز الإلهي للعبد فإذا أراد الرضا بالقضاء والتوكل على الله تعالى وتحرك للسعي حَصَّل المطلوب، وهو رضا الله رب العالمين.

فالإرادة قد تتحرك بلا أي تأثير للثقة بالنفس فإذا تحركت إرادة العبد لم يحبطه يأس ولا كآبة، نعم حتى تبقى الإرادة لا بد من الرضا بقضاء الله تعالى والتوكل عليه وإلا أصيب الإنسان باليأس لما سيأتي.

منشأ الثقة بالنفس وآفاتها

تشتعل في الانسان جذوة الثقة بالنفس في بداية الشباب، ذلك أنه في طفولته كان كل اتكاله على والديه الذين يرى فيهما القوة والقدرة، فكل ما يريده يتوجه فيه اليهما، وهو الآن يرى أنَّ كل ما كان يتكل على والديه لأجله أصبح موجوداً فيه، فعند بدء الشعور بالقوة تبدأ حالة الثقة بالنفس، وكلما ازداد قوةً ازداد إفراطاً في الثقة بنفسه، فتراه في سن العشرين يريد أن يغير الحياة بل الكون بأكمله، ويرى كل من يدعوه الى الصبر والتروي ضعيفاً، فهو دائماً يريد من الأمور أعلاها، ويرى كل فكرة مستجدة في عقله حلماً عليه تحقيقه، ومن هنا نرى أنَّ الثورات وحالات التغيير في المجتمع وقودها الشباب الحائزين لتلك الثقة المحرِّكة لهم نحو المجهول غالباً.

ويسير الشاب مع فرط هذه الثقة لما يشعر به من القوة وما يطمح له من أحلام فنراه يتحرك وكأنَّ الدنيا تتغير تبعاً لحركته، الى أن يصطدم بظروف الحياة التي قد تحول بينه وبين أحلامه فيبدأ التدهور.

وقبل الخوض في حالات الناس بعد الإصابة بهذه الصدمة نقول: إنَّ تحلّي العبد بالقوة لا يلازم تحقق مراده، فالقوة ليست الإكسير الأعظم كما يتوهم بعض الناس، بل في كثير من الأحيان تكون سبباً للضعف، كقوة الشهوة مثلاً فإنها سبب الضعف أمام الهوى، وفرط الشعور بالقوة يحمل الإنسان على عدم التدبير فلا يعود يفكر في طريق الوصول الأمثل إلى المطلوب، ومن هنا كانت زهوة النصر تهدم في ساعة ما بني في أعوام، فهذه القوة تكون سبباً للضعف وبسببها يغيب عقل المرء فتسهل هزيمته بالحيلة، فالقوة والإتكال عليها إذاً أحد أهم أسباب ذهاب الحكمة في حياة المرء.

أما إذا فشلت القوة والثقة بالنفس فستأتي حالة من الإحباط قد يصبح معها الإنسان معدوم الإرادة فلا يتحرك إلّا الى الأمور الضرورية والحاجات الأساسية اليومية، وتتفاقم الحالة مع ما يجول في الذهن محاكياً القلب من أفكارٍ منبثقةٍ من الحالة النفسية.

فبعض الناس يصل به الأمر الى الإلحاد، ذلك أن الإنسان مفطور على الإيمان بالعدل والرحمة الإلهيتين، فإذا رأى أن سير الأمور منعه من حقه في تحقيق أهدافه، وسَلب الحق ظلمٌ، ولو كان الله موجوداً لحال دون ظلمه، فينفي وجوده او يشكك به تعالى وبعدله ورحمته.

والبعض الآخر لله في نفسه قداسة تمنع من هذه الأفكار والتشكيكات ولكنه يقع في الخطأ من جهة أخرى فينفي جدوى إرادته بل ينفي إرادته مطلقاً ويمنّي نفسه بالرضا بالقضاء ويقتصر على الصلاة والصوم والدعاء ليُحدث في نفسه سلاماً قد فقده ويُرَضّي نفسه بأنَّه يعمل ما يرضي الله، والحقيقة أنه أبعد ما يكون عن الرضا بقضاء الله، فلو كان راضيا لما أثّرت فيه النتائج غير المتوافقة مع مساعيه، فالله لم يطالب حتى أنبيائه بالنتائج، فنبي الله لوط عليه السلام لم يكن لدعوته نتيجة ظاهرة فلم يخرج قومه من ظلمات فواحشهم الى نور الإيمان والعمل الصالح بل نزل بقومه أشد العذاب، وكذلك نوح وزكريا عليهما السلام.

وهو تعالى إنما يريد من عبده الإيمان والعمل الصالح مع النية الصادقة، ولو أنه يريد اللهَ حقاً لاقتدى بأنبيائه وأوليائه عليهم السلام، فقد كانوا أصحاب عزيمة وإرادة لكل ما أحب الله تعالى من العمل ولم يتركوا السعي في كل ما أمرهم به مولاهم عز وجل[1].

---

١ إنَّ الإنسان مأمور بالإيمان والعمل الصالح وليس مخاطباً بالنتائج فهي بيد الله تعالى وحده، وعلى العبد التسليم لله في النتائج مهما كانت، ومن هنا كانت الأوامر الإلهية منصبة على الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ ولم يقل: وحَصَّل النتائج.

ثقافة الحق في تحصيل المطالب

ثقافة الحق في تحصيل المطالب وآثارها على الفرد والمجتمع

إنَّ الإنسان حينما يريد تراه يقطع بحصول المراد، خصوصاً بعد السعي، فإذا لم يحصل المراد يرى أن الله تعالى -والعياذ بالله ظالم- لأنه منعه من مراده، والسبب في هذا الأمر أنَّ الإنسان يحلم بأمور كثيرة، خصوصاً من خلال ما تربى عليه في المجتمع من اقتران العمل بالحلم، فيقال له: تعلم حتى تصبح طبيباً أو ضابطاً لتعيش في راحة وتتزوج وتكون سعيداً.

فهذه الأمور تنمو معه في مراحل حياته، فيرى الخير والصلاح في تحصيل مراده، والعدل في العيش المؤاتي لما أراه إياه المجتمع، فالمجتمع علّمه أن من حقه أن يعيش في سعادة وهناء.

والحال كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «العقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة القلوب والقلوب أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء»[1].

١ بحار الأنوار: ج١ ص٩٦.

فتنشأ الإرادة مع هذه الأفكار فيتحرك الإنسان تبعاً لقلبه التابع لهذه الأفكار التي كونها من المجتمع.

ومن هنا يرى أنَّ الغنى نعمة والفقر نقمة، وهكذا في كل الأمور فيرى الموت نقمة والحياة نعمة كيفما كانت، ولهذا ترى حتى المجتمع المسلم يمدح من عمل وحصَّل المال والجاه ونراهم يجعلونه مثلاً ويتخذونه قدوة ولو كان يعصي الله تعالى ولا يصلي ولا يصوم، أمّا الفقير فيكون موضع رحمة واستهتار، فترى حتى المتدينين إذا قيَّموا الناس يقولون إنَّ فلاناً حاذق لقد جمع ثروة في فترة قصيرة، و فلان قد تحمل الصعاب وتعلم حتى أصبح مهندساً، وفلان أصبح رئيساً بين الناس أو صار وجيهاً، أما فلان فهو فقير معدوم وفلان قد عمل كثيراً ولم يحصل على ثروة، و فلان تعلم ولكن لم يحصل على مركز بل بقي حاله متوسطاً وهكذا يكون تقيم البشر عندهم.

ولا يقولون من أين جاء الغني بماله أو كيف يقصر في الطاعات والحقوق، ولا ينظرون الى المثقف كم يحمل من الأفكار التي تخالف

الدين، ولا الى صاحب المركز كم يظلم ويعمل المحسوبيات والرشاوى وهكذا، ولا الى عدم تفريط الفقير بدينه لأجل دنياه وعدم انجرار صاحب المركز المؤمن الى الرشوة والفساد.

فترى المجتمع مصداق لقوله تعالى ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلاَّ بَل لّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[1]، فالآية صريحة بأنَّ الإنسان برى في الرزق إكرام من الله تعالى له، وفي قدر الرزق إهانة له، والإهانة واضحة المعنى في الإذلال، فالفقير يشعر بأنَّ هذا ظلم له، ولهذا ترى الإنسان حين البلاء يعترض، فلو لو لم يرَ في البلاء ظلماً لما اعترض.

---

١ الفجر: ١٥-٢٠.

ومن هنا نرى الفقير يقول ما دام الرزق والجاه إكرام، فلماذا يكرم الله تعالى هؤلاء ويهينني، فهنا بغير التفات يشعر بأن هذا ظلمٌ، والإله بفطرة الإنسان لا يمكن أن يكون ظالماً لأنَّه مقدس.

فمن خلال هذا الأمر تأتيه الخواطر بأن الإله غير موجود وهو يدفعها عن نفسه دون أن يقضي عليها، وهذا الشعور الداخلي بالظلم يولد حالة من التوتر الدائم في النفس، فتراه غالباً لا يصبر على شيء بل تراه عصبي المزاج، وعنده أعراض بدنية وضيق صدر وأفكار ووساوس دائمة ويغلب عليه التعب لكثرة همه و«من كثر همه سقم بدنه»[١] كما في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكل هذا لأن المجتمع صيّر الرخاء في نفسه كمالاً، فضلاً عن كونه لذة يسهل وصولها إلى النفس، ومن هنا كان تعبير الآية ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[٢]، فالإنسان إذا أحب شيئاً وهو يراه قبيحاً فغالباً لا يستطيع أن يحبه

١ تحف العقول: ص٥٧.

٢ الفجر: ٢٠

حباً جماً، لأن الفكر يحدث عنده حالة من الندم والألم فتخفف من حالة الحب فالآية قالت "حباً جماً" أي كثيراً والذي يناسب ذلك هو أن يكون الفكر والقلب متحدان في ذلك.

آفات ثقافة الحق في تحصيل المطالب المعتضدة بالهوى

الأولى: أنَّ الإنسان مع هذه الثقافة يرى الغنى والجاه والرئاسة والفخر غاية له.

الثانية: أنَّه يرى أن هذه الأمور من حقه الحصول عليها، وعدم حصوله عليها إذلال له، فهو بالتالي ظلم.

الثالث: أنَّه يرى عدم حصوله عليها بتسبيب من الله تعالى.

الرابع: أنَّه يرى لابدِّية تحقق المراد بمجرد الإرادة والتحرك وفقها.

الخامس: من رأى أن إرادته لم تحصِّل المراد ولم يتهم الله بالظلم تضمحل إرادته في طلب العلى، بل يسير على المعتاد فقط كما أوضحنا فيما تقدم.

الحل

الحل لهذه الأمور التي تصيب نسبة لا بأس بها من الناس:

أوّلاً على الإنسان أن يعرف أنَّ مثل حالة الغنى والرئاسة والجاه ليست غاية الإنسان، بل الغاية للإنسان هي كيفية التعاطي مع هذه الحالات، فيرى في الغنى جهة نعمة عليه شكرها وجهة بلاء لها آثار ومتطلبات.

أما الآثار فالغنى ونظائره تحدث في نفس الإنسان حالة من الزهو والنظر الى النفس تسبب غالباً استخفافاً أو استحقاراً للآخرين، روي عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال «إنَّ رجلاً فقيراً أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وعنده رجل غني، فكف (الغني) ثيابه وتباعد عنه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ما حملك على ما صنعت، أخشيت أن يلتصق فقره بك أو يلصق غناك به؟! فقال يا رسول الله أما إذا قلت هذا فله نصف مالي، قال النبي صلى الله عليه وآله للفقير: أتقبل منه؟ قال: لا، قال: ولم؟ قال أخاف أن يدخلني ما دخله»[١].

كما ويرى نفسه هو المتصرف، فهو الذي يدفع المال ويخمس ويبيع ويشتري، فيرى لنفسه شأناً، وقد يصل الى درجة يرى لنفسه شأناً عند الله

---

١ ارشاد القلوب: ج١ ص١٥٩.

تعالى بهذه الأفعال، وهذه الحال قد تصوّر له أنَّ له حقاً ولو صغير على الله تعالى والعياذ بالله تعالى.

و من الآثار أن يرى أن المال جاء بفعله، لا أنه رزق من الله تعالى، وهذا هو شعور غالب الأغنياء، وإن كان يقول ظاهراً أنَّه رزق الله تعالى، بدليل أنه حينما يعطي المال لغيره صدقةً يرى أنه هو من أعطى الفقير، ولا يرى أنَّ هذا المال مال الله تعالى وهو من وفقه لإعطائه للفقير، ولهذا تراه يقول تاجرت وحصلت على هذا المال بتعبي ومهارتي وأنا من سعى، وإذا لم يرزق يقول لم يرزقني الله تعالى، فالصالحة منه والطالحة من الله تعالى والعياذ بالله، ولا يلتفت أنَّ الله تعالى هو من رزقه عبر هذه الأسباب، بل يقتصر نظره على الأسباب، مع أنه يرى أن بعض الأسباب لا تؤثر أحياناً، ويرى الربح يجري أحياناً من أسباب غير متوقعة، وهذا مصداق لقوله تعالى على لسان قارون ﴿قالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِي﴾[1].

---

١ القصص: ٧٨.

وغالباً ما يوصل الغنى الإنسانَ إلى التعاطي مع أمور الدين بنقدٍ لا بخضوع، فالمال يعمي البصيرة، لأنَّ البصيرة تفتح من خلال أسباب، وأحد أهم الأسباب هو الشعور بالعبودية من خلال الشعور بالذل والضعف والفقر، فإنَّها صفات إذا حصّلها الإنسان حينئذٍ يتلبس بحقيقتها، وهذه الحقيقة إذا ثبتت في كيان الإنسان انفتحت بصيرته لأن لهذه الحقيقة أثرها البالغ، بخلاف ما للشعور بالقوة من أثر، فإنه يعمي البصيرة، لأنه كالغشاء الأسود الذي يلف الروح، بل يظلم القلب فيصده عن الهدى.

ومن آثار المالِ: طولُ الأمل، لأنَّ المال يحث الإنسان على السعي في تحصيل الملذات، والإنغماس في الملذات يورث الغفلة، ومع الغفلة يكون طول الأمل لأنها تنسي الموت. ومن الآثار: الطغيان، كما جرى مع قارون، فإنَّه كان كثير العبادة وكان مقرباً من موسى عليه السلام فابتلاه الله بالمال، فأوتي من المال ما لا يقدر مجموعة من الرجال الأشداء على حمل مفاتيح خزائنه، فطغى ورفض ثوب العبيد وحارب موسى عليه السلام فأهلكه الله تعالى، قال تعالى ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ

وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ

الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾[1].

فالغنى بلاء لأنَّ «المال مادة الشهوات»[2] كما قال أمير المؤمنين عليه السلام، فهو سبب ضياع قارون.

أما الفقر، فهو بلاء مع عدم الصبر كما هو واضح للعيان عند كثير من البشر، نعم الفقر مع الصبر جميل، والغنى مع عدم تعلق القلب بالمال ومع العطاء والشكر وإخراج الحقوق سببٌ للقرب من الله تعالى.

---

١ القصص: ٧٦-٨٣.

٢ نهج البلاغة: ج٤ ص١٤.

خاتمة

الإرادة والثقة بالله

الإرادة هي النعمة الإلهية على العبد، وبها يكون العبد عبداً ويخرج من أسر الهوى والشهوات، إذا توكل على الله تعالى وأراد أن يكون عبداً لله تعالى إرادةً تصل إلى درجة تحركه نحو غايته. وأما إذا كانت إرادة ذهنية لا تؤثر إلا في الخيال والوهم فهذه في الواقع أمنية وليست إرادة، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام «إياك واتكالك على المنى فإنها بضائع الموتى»[1] فشبّه عليه السلام من ينتظر أن تحركه المنى بالميت، فانه لا يتحرك.

ثمَّ إنَّ من وثق بقدرة الله تعالى توكل عليه، ومن وثق بصفات الله تعالى من الرحمة واللطف وحسن التدبير حَسُنَ ظنُّه به ورجا فضله وعونه عز وجل، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ليس من عبد يظن بالله خيراً، الا كان عند ظنه به»[2]، فالذي يظن أنَّ الله تعالى سيرزقه ويعطيه من فضله فإن

---

١ نهج البلاغة: ج٣ ص٥٢.

٢ بحار الأنوار: ج٦٧ ص٣٨٤.

الله تعالى لا يُخَيّب ظنّه، وكيف يخيِّب الله من ظن به خيراً وهو تعالى قد علمنا على لسان أولياءه أن نكون عند حسن ظن الناس بنا، كما في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ومن ظن بك خيراً فصدّق ظنه»[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «حسن ظن العبد بالله سبحانه على قدر رجائه له»[٢]، وللظن سبب فأنت لا تظن حسناً بشخص إلا إذا رجوت عطاءه أو حسن صنيعه، وهذا الرجاء منشؤه المعرفة القلبية بأنَّه قادر، لأنَّ العاجز لا يحل مشكلة، وأنه رحيم لأنَّ اللئيم يأخذ منك ولا يعطيك، ولا بد أن يكون عالماً مدبراً.

والعلم بصفات الله جل وعز عند كثير من المؤمنين موطنه الذهن ولم يصل الى القلب، بدليل أنك تراهم غير معتمدين على الله تعالى في قضاء حوائجهم بل إلى غيره يتوجهون وباب سواه يقرعون.

---

١ نهج البلاغة: ج٣ ص٥٤.

٢ مستدرك الوسائل: ج١١ ص٢٥٢.

وترى غالب المسلمين لا يتوجهون الى الله إلا في الأمور العظيمة التي لا يقدر على حلها أمثالهم، أو آيسوا من أمثالهم في قضائها، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «يدعي بزعمه أنه يرجو الله. كذب والعظيم، ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله؟ فكل من رجا عرف رجاؤه في عمله. وكل رجاء (خالص أو سليم) إلا رجاء الله تعالى فإنَّه مدخول .... يرجو الله في الكبير، ويرجو العباد في الصغير، فيعطي العبد ما لا يعطي الرب. فما بال الله جل ثناؤه يقصر به عما يُصنع لعباده؟ أتخاف أن تكون في رجائك له كاذباً؟ أو تكون لا تراه للرجاء موضعاً؟»[1]، فهذه الخطبة الشريفة تعلِّمنا أن من لا يرجو الله الا في الكبير من الأمور رجاؤه مغشوش، فهو رجاء على نحو احتمال التأثير من المضطر لهذا الإحتمال، كما يقال (الغريق يتعلق بقشة) والعياذ بالله، ولو كان هذا الرجاء صادقاً خالصاً لحصل في النفوس حالة من الإطمئنان لا القلق، ولتحقق رجاء القلب في قضاء الله تعالى لكل حوائجهم وهذا ما يُصَيِّر الدعاء دعاءً حقيقياً، فعندها يتوجه العبد الى

---

١ نهج البلاغة: ج٢ ص٥٦.

الدعاء والتوسل الى الله عز وجل غير مؤمّل بسواه جلت عظمته، ولا يجد في قلبه توجهاً إلى الأشخاص لقضاء حاجته، بل يجد قلبه يطرق باب الخالق لا المخلوق، وباب القادر لا العاجز، وباب القوي لا الضعيف، وباب الغني لا الفقير.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إجعلوا كل رجائكم لله سبحانه ولا ترجوا أحداً سواه فإنه ما رجا أحد غير الله تعالى إلا خاب»[١]، نعم من يرجو الفقير العاجز الضعيف لا بد أن يخيب، خصوصاً مع ما ورد من الحديث القدسي «لأقطعن أمل كل مؤمل غيري باليأس...»[٢].

فكل الأمور بيد الله واقعاً ويمكن أن تكون ظاهراً بعضها بيد العبد ولكن لو كشف الغطاء لرأيت هذا الظاهر وهماً لولا فضل الله تعالى.

---

١ غرر الحكم: ٢٥١١.

٢ الكافي: ج٢ ص٦٦.

الفهرس

فهرس الموضوعات